البيان في تفسير سورة الإنسان

دراسة تحليلية

د / خالد سعيد أحمد البسيوني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي وسعت رحمته كلَّ شيء وأحاط علمه بكلِّ شيء لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، والصلاة والسلام على خير الأنام وسيد الخلق محمد ـ ﷺ ـ ، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون.

أما بعد ،

فإنَّ من أفضل ما سطرته الأقلام واجتهدت في الاشتغال به العقول والأفهام هو علم التفسير ، وذلك لانتسابه إلى أشرف كتاب وأعظم معجزة إلهية على مرِّ التاريخ البشرى ألا وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولكم تمنيت أن أغترف من هذا العلم وأنهل منه فكان ما كان من توفيق الله ـ تعالى ـ لي ، ومن نعمه الكثيرة عليَّ أن التحقت بكلية أصول الدين والتحاقي كذلك بقسم التفسير وعلوم القرآن ، مما كان له الأثر البالغ في دراسة علم التفسير دراسة علمية تعتمد على ما توفر من تقرير مواد أخرى لخدمة هذا العلم وذلك نحو مادة علوم القرآن وما يتصل بها من دراسة لعلوم شتى كالأصول ، والفقه واللغة والبلاغة وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ إلى آخره وكمادة الدخيل ومادة مناهج المفسرين وغيرها . فللّه الحمد والمنة .

وفى هذه الصفحات القلائل أحاول بعون الله وقدرته ـ كما أشرف في نفس الوقت ـ تطبيقَ ما تعلمته في دراسة علم التفسير وذلك من خلال تفسير سورة الإنسان تفسيراً تحليلياً يقوم على المنهج الآتي :

(أ) تمهيد ويشتمل على :

١ـ اسم السورة وسبب تسميتها بهذا الاسم .

٢ـ مكان نزولها .

٣ـ عدد آياتها .

٤ـ الحديث عن فضل السورة .

٥ـ مناسبتها لسورة القيامة .

٦ـ استعراض عام للسورة .

(ب) التفسير التحليلي للسورة ويشتمل على :

١ـ بيان مناسبة الآية أو الآيات لما قبلها

٢- بيان سبب نزول الآيات إن كان هناك سبب للنزول .

٣- شرح معاني المفردات وأسرار التراكيب .

٤- ذكر المعنى العام للآيات .

٥- الحكم والدروس والعبر المستفادة من الآيات .

والله تعالى أسأل أن يوفقني في هذا العمل ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم

والله ولي التوفيق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

تمهيد ،

قبل أنْ أتناول " بعون الله وتوفيقه " آياتِ هذه السور الكريمة بالتفسير لا بُدَّ من بيان عدة أمور وهي :

- اسم السورة الكريمة وسبب تسميتها بهذا الاسم
- مكان نزولها .
- عدد آياتها .
- الحديث عن فضل السورة .
- مناسبتها لسورة القيامة .
- استعراض عام للسورة .

أمَّا عن أوّل هذه الأمور وهو اسم السورة الكريمة وسبب تسميتها بهذا الاسم فبيانه ما يلي :

أولا : ذكر علماءُ التفسير لهذه السورة خمسةَ أسماء .

هي " سورة الإنسان " وسورة " هل أتى على الإنسان " وسورة " الدهر " وسورة " الأمشاج " وسورة " الأبرار "[1] .

ولا شك أنَّ كثرةَ الأسماء تدلُّ على شرف المسمى

---

(١) [ينظر التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١٤ - ٣٦٩] ، [وروح المعاني للآلوسي ١٦- ٢٥٨].

والثابت بالتوقيف من هذه الأسماء الخمسة[1] هي التسمية الثانية :" هل أتى على الإنسان "

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال :" كان النبيُّ - ﷺ - يقرأ في الفجر بـ" آلم السجدة " و " هل أتى على الإنسان "[2] .

وذكر علماءُ التفسير وعلوم القرآن أنَّ " هذه التسمية مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكلّ . أو استعارة مكنية الجامع فيها بين المشبَّه المذكور والمشبَّه به المحذوف هو مطلق التمييز الحاصل في كلٍّ . وذكروا أنَّ التسمية إنْ كانت من هذا القبيل فإنه لا يطلب لها سرّ سوى مجرد التمييز لها عما عداها من السور "[3] .

وعليه فإنَّ سورة " الإنسان " سميت " هل أتى على الإنسان " فأطلقت جملةٌ من أوّلها لم تتكرر في غيرها تمييزاً لها عمَّا عداها من السور .

---

(١) [لم تكن مسألة تسمية السور محلّ اتفاق بين العلماء .. إذْ يرى البعض أنّ تسمية سور القرآن الكريم بأسمائها المعروفة من قبيل التوقيف .. وهو ما ذهب إليه الإمام السيوطي - رحمه الله - في إتقانه (١ - ١٤٨) وقيل إنها اجتهادية ، وعلى هذا فلا يعدم الناظر أن يستنتج للسورة الواحدة أسماءً أخرى غير الواردة . [ينظر : المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ٣٢١ د / محمد محمد أبو شهبة - ط - مكتبة السنة / الثانية ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م] وقيل : إنّ بعض أسماء السور ثابت بالتوقيف والآخر بالتوفيق " على ما حققه الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة في كتابه (التفسير التحليلي لسورة النساء ص : ١٢، ١٣- ط - مطبعة الفجر الجديد - الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م) وعلى كلٍّ فهذا الخلاف لا يمنع من البحث عن أسرار أسامي السور فإنْ كانت التسمية ثابتة بالتوقيف فالتعرف على سرّها تعرف على جانب من حكمة الله في قرآنه العظيم .. وإن كانت التسمية غير ثابتة بالتوقيف فإنّ التعرف على سرها حينئذ فوق كونه إثباتاً لكون المجتهدين من الأئمة ؛ ما كانوا يختارون رأياً جزافاً ، وإنّما عن تبصر واعتبار ، وحكمة إثبات في الوقت نفسه لمزيد من عناية الأمة بقرآنها العظيم .. (ينظر : التفسير التحليلي لسورة النساء ص : ١٤).

(٢) [صحيح البخاري كتاب الجمعة باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة (١ - ٣٠٣ رقم٨٥١) وصحيح مسلم (بشرح النووي) كتاب الجمعة باب ما يقرأ في يوم الجمعة (٢ - ٥٩٩ رقم : ٨٨٠).

(٣) [بحثان حول سور القرآن " اسم السورة يمثل روحها العام ، ترتيب نزول السور القرآنية ". لفضيلة الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة ص : ١٩ ط / دار البصائر الأولى ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م].

أما عن بقية الأسماء الأربعة " الإنسان " " الدهر " " الأمشاج " " الأبرار " فكلّها من قبيل التسمية بالعلم وحينئذ يطلب لها سر ..

فما هو أقرب السبل للوقوف على سرّ تسمية السورة بهذه الأسماء ؟

بداية يدلُّنا الإمام الزركشي على وجه اختصاص كل سورة بما سميت به فيقول :" لاشك أنّ العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذَ أسمائها من نادر أو مستغرَب يكون في الشيء من خَلْق أو صفة تخصُّه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمَّى . ويسمُّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها . وسميت سورة النساء ، بهذا الاسم لما تردّد فيها من كثير من أحكام النساء ، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها ؛ إلاّ أنّ التفصيل الوارد في قوله ــ تعالى ــ :(وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً) إلى قوله (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ)[1] لم يرد في غيرها ؛ كما ورد

(١) [سورة الأنعام من الآية ١٤٢ – ١٤٤].

ذكر النساء في سُوَر إلا أنّ ما تكرر وبُسط من أحكامهنّ لم يرد في غير سورة النساء . وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها "هـ"[2].

فالتسميةُ إذاً تكون بأغرب شيء ذُكر في السورة أو بندرته ..

ولكنّ هذا لدى البعض لا يكفي مبرراً في تسمية السورة بل لا بُدَّ من " أن يكون سرُّ التسمية هو بيان أبرز الموضوعات أو الموضوع الأبرز في السورة بحيث يعد هذا الموضوع بمثابة نقطة الارتكاز التي تدور من حولها حلقة موضوعات السورة بأسرها . أو بعبارة أخرى بمثابة المركز للدائرة كما يقول المهندسون . أو بعبارة ثالثة بمثابة المحور للفلك كما يقول الجغرافيون والفلكيون.

ثم بعد ذلك ننظر في السبب المقتضي لإطلاق اسم السورة بخصوصه على ما يعمه وسائر الموضوعات الأخرى التي اشتملت عليها السورة "[3]

(٢) [البرهان للزركشي جـ١ ص ٢٧٠ – ٢٧١ ط / الحلبي . تحقيق [محمد أبو الفضل إبراهيم].

(٣) [التفسير التحليلي لسورة النساء ص ١٦ ، ٢٢]. بتصرف

وإذا كان هذا هو الطريق الأمثل للبحث عن سرّ تسمية السورة باسمها فلنلق نظرة على سورتنا تلك محاولين سلوك هذا الطريق في التعرف على سرّ تسميتها وليكن ذلك من خلال أحد هذه الأسماء الأربعة السابق ذكرها .

فمثلا تسمية هذه السورة بـ" الإنسان "[1] ظاهر فيها وبيان ذلك :

أولاً : ورود اسم الإنسان فيها أي في قوله ــ تعالى ــ:(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ..)[2] الآية

ثانياً : ترابط موضوع السورة بهذا الاسم وذلك أنّ السورة الكريمة – من خلال الملاحظة المتأنية – تدور في فلك " التكريم والتذكير " وأعني به تكريم الله للإنسان وتذكيره بخلقه الأوّل (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً) وكذلك تذكيره بأحد مراحل خلقه المختلفة (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)[3].

وكذلك وضع الاختيار فيه تكريماً منه ــ تعالى ــ حيث لم يجعله كالجمادات مثلاً ، وتذكيره كذلك بمسئوليته أمام هذا الاختيار (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)[4].

ثم تكريم من اختار ــ من بني الإنسان – طريق الهدى على طريق الضلال بأن جعل الله له الجنة مأواه يتبوأ منها حيث يشاء (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً...)[5] إلى قوله ــ تعالى ــ(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً)[6] ثم التذكير بأفضل ما تكرم الله به على البشرية أو الإنسانية في حياتها الدنيا وهو مخاطبته لهم عن طريق الرسل والأنبياء متمثلاً هذا التذكير في خاتم

(١) [اقتصر صاحب الإتقان على تسمية هذه السورة " سورة الإنسان " عند ذكر السور المكية والمدنية (النوع الأول) قلت : ولعلّ استناده في تلك التسمية يرجع إلى أكثر من أثر عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وغيره لكن ما صُرّح فيها بتلك التسمية سنده ضعيف ، وما صحّ منها لم ينص على هذه التسمية بعينها ، وسيأتي ذكر هذه الآثار عند بيان مكان نزول السورة الكريمة . وعلى كلّ فتسمية هذه السورة بـ " الإنسان " هو أشهر أسمائها سواء في المصاحف أم في كتب التفسير].

(٢) [سورة الإنسان آية رقم : ١].

(٣) [. . . . . : ٢].

(٤) [. . . . . : ٣].

(٥) [سورة الإنسان آية رقم : ٥].

(٦) [. . . . . : ٢٢].

الأنبياء والمرسلين (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (١)).

ثم العود مرة أخرى للتذكير بتكريم الله للإنسان حيث خلقه الله (لا غيره) خلقاً قوياً متماسكاً (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢)).

ثم التأكيد على أنّ ما سبق ذكره في السورة إنما هو تذكير من الله ــ تعالى ــ خلقه وما يتبع ذلك من المسئولية والجزاء (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٣)).

نستطيع القول إذن : إنّ موضوع السورة يدور حول (التكريم والتذكير)

ولما كان الإنسان صاحب هذا التكريم من ربه ، ومحط نظر الله ــ تعالى ــ في خلقه أطلق اسم الإنسان على السورة الكريمة تكريماً لـه أيضاً ، وتذكيراً بمكانته لـدى رب العالمين ــ سبحانه وتعالى ــ والأمر كما قيل :

وكم أبصرت من حسن ولكن
عليك من الورى وقع اختياري (٤)

تلك محاولة للتعرف على سرّ تسمية سورة الإنسان بهذا الاسم .

ولا يعدم المتأمل فيها أسراراً أخرى تهديه إلى حكمة تسمية السورة بهذا الاسم كما أنّه من السهل أيضاً لدى المتأمل في هذه السورة الكريمة – إذا ما سلك الطريق السابق ذكره للوقوف على سرّ تسمية السور بأسمائها – أقول من السهل أن يتعرف على سرّ تسمية هذه السورة الكريمة بأسمائها الباقية أعني " الدهر (٥) " " الأمشاج (٦) " " الأبرار (٧) "

والله الموفق .

---

(١) [" " " : ٢٣].
(٢) [" " " : ٢٨].
(٣) [" " " : ٢٩].
(٤) [البيت ذكره الإمام القشيري في تفسيره (لطائف الإشارات ١ــ ٧٤ ط الهيئة ٢٠٠٠ م) وهو لـ/ محمد بن وهب الحميري (٢٢٥ هــ = ٨٤٠ م) من شعراء الدولة العباسية ، عاصر دعبلاً الخزاعي ، وأبا تمام ، وتصحيح البيت :

وكم أبصرت من حسن ولكن
عليك لشقوتي وقع اختياري

وقبله : صدودك والهوى هتكا استاري
وساعدني البكاء على اشتهاري

(٥) [اقتصر الإمام أبو حيان في تفسيره على تسمية سورة الإنسان بـ" سورة الدهر " [البحر المحيط ٨ – ٣٣٨] وقال الطاهر بن عاشور :" وتسمى " سورة الدهر " في كثير من المصاحف .[التحرير والتنوير ١٤ ــ ٣٦٩].
(٦) [ورد في حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي [٨ ــ ٢٨٥ دار صادر بيروت] تسميتها بسورة " الأمشاج " وعلة ذلك ــ كما قال ابن عاشور :" وقوع لفظ الأمشاج فيها ولم يقع في غيرها من القرآن .[ينظر : التحرير والتنوير ١٤ ــ ٣٦٩].
(٧) [ذكر الطبرسي : أنها تسمى " سورة الأبرار " لأن فيها ذكر نعيم الأبرار .[مجمع البيان في تفسير القرآن ٦ ــ ١٣٥ . للشيخ أبي الفضل بن الحسن الطبرسي / منشورات دار مكتبة الحياة بيروت].

ثانياً : مكان نزول السورة الكريمة :

لم تكن سورة الإنسان محلّ اتفاق بين العلماء من حيث مكية النزول أو مدنيته فبينما ينص الإمام أبو حيان (١) والشهاب الخفاجي (٢) والألوسي (٣) على أنّ الجمهور قد ذهب إلى أنّ سورة الإنسان " مكية النزول " نرى في الجانب الآخر الإمامَ ابن الجوزي (٤) والقرطبي (٥) يذكران أنّ الجمهور قد ذهب إلى أنّ سورة الإنسان " مدنية النزول ".

وبجانب الجمهور هنا وهناك نجد من استثنى من مدنيتها قوله ــ تعالى ــ: (وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٦)) إلى آخرها ، أو قوله ــ تعالى ــ: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ (٧)) إلى آخرها .

وفيما يلي تلخيصٌ لتلك الأقوال مع ذكر أدلة كل فريق وترجيح الصواب منها .

أولاً : أدلة من قال بمكية نزول سورة الإنسان :

١ – ما عزاه السيوطي في إتقانه (٨) وكذلك في الدر المنثور (٩) لأبي جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ (١٠) " بإسناد جيد ": عن مجاهد عن ابن عباس – رضى الله عنهما – في عدِّ المكي والمدني من السور .. وفيه أنّ سورة الإنسان " مكية النزول ".

---

(١) [البحر المحيط – ط دار الكتب العلمية / بيروت – الأولى ١٤٢٢ هــ ــ ٢٠٠١ م].
(٢) [حاشية الشهاب على البيضاوي ٨ – ٢٨٥].
(٣) [روح المعاني ١٦ – ٢٥٨ – ط– دار الفكر – بيروت ١٤١٧ هــ ــ ١٩٩٧ م].
(٤) [زاد المسير ٨ – ٤٢٧ – ط – دار الفكر – بيروت].
(٥) [الجامع لأحكام القرآن ١٠– ٦٩٠٩ دار الريان للتراث].
(٦) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٤].
(٧) [" " " ٢٤].
(٨) [الإتقان ١ – ٢٤ ، ٢٥ مكتبة دار التراث – القاهرة].
(٩) [الدر المنثور ٨ – ٣٦٥ – ط – دار الفكر – بيروت – الثانية ١٤٠٣هــ ــ ١٩٨٣م].
(١٠) [الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ص ٢٣٨ – مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة].
وموضع الشاهد من الأثر :" ..ونزلت بمكة سورة الأعراف ويونس وهود ..." إلى أن قال " .. والمدثر إلى آخر القرآن إلا إذا زلزلت وإذا جاء نصر الله والفتح ... إلى آخرها ".

٢ – ما عزاه السيوطي في الدّر أيضاً [١] لابن مردويه عن ابن الزبير قال : نزلت بمكة سورة " هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ".

٣ – وهو كذلك قول ابن مسعود – ﷺ – لأنه كذلك رتبها في مصحفه فيما رواه أبو داود . [٢]

٤ – وكذلك قال قتادة وعلي بن أبي طلحة . [٣]

ثانياً : أدلة من قال بمدنية سورة " الإنسان ".

١ – استدلوا بما عزاه السيوطي لابن الضريس في فضائل القرآن لابن عباس – ﷺ – وفيه :" ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة ، ثم الأنفال .. إلى أنْ قال " .. ثم الإنسان .." [٤]

قلت : ولكنَّ هذا الأثر يعتري سنده الضعفُ من أوجه :

أحدها : أنّ فيه عثمان بن عطاء الخرساني عن أبيه ، وعثمان ضعيف . [٥]

ثانيها : أنّ عطاء الخراساني وإن كان صدوقاً ، يخطئ كثيراً ويرسل ويدلس . [٦]

صدوقيته إذن ، لا تعدو أن تكون مجرد شهادة بعدالته . وأمّا ضعفه فمخدوش بل ساقط بكثرة خطئه فهو إذنْ ضعيف من قبل الضبط ، وإنْ لم يضعف من قبل العدالة .

ثالثها : أنّ عطاء هذا – على ما سبق – يرسل ويدلس ، وقد جاءت روايته في هذا الأثر عن ابن عباس بالعنعنة فلا يغتفر تدليسه لا في هذه الرواية ولا في غيرها فإنّه إنّما يغتفر تدليس الثقة لا تدليس من دون الثقة فضلاً عن الضعفاء من أمثال عطاء هذا .

---

(١) [الدر المنثور ٨ – ٣٦٥].

(٢)[سنن أبي داود ٢– ٤٧ أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله باب تحزيب القرآن رقم:١٣٩٦].

(٣) [الإتقان ١ – ٢٧ ، ٢٨].

(٤) [الإتقان ١ – ٢٦ ، ٢٧].

(٥) [المجروحين ٢ – ١٠٠ لـ/ أبي حاتم البستي ، ط / دار الوعي / حلب . وتقريب التهذيب لابن حجر ١ – ٣٨٥ رقم : ٤٥٠٢ ط / دار الرشيد / سوريا / الأولى ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م ، والمغني في الضعفاء للإمام الذهبي ٢ – ٤٢٧].

(٦) [تقريب التهذيب ١ – ٣٩٢ رقم : ٤٦٠٠ ، وتهذيب الكمال للمزّي ٢٠ – ١١٠ رقم : ٣٩٤١].

٢ – استدلوا بما ساقه البيهقي في دلائل النبوة [١] بسنده عن عكرمة [٢] والحسن بن أبي الحسن [٣] حيث قالا – عند ذكرهما للمكي والمدني من السور –: وما نزل بالمدينة : ويل للمطففين ... إلى أنْ قالا : وهل أتى على الإنسان ... إلى آخرها "

قلت : وهذا الأثر – وإن صحَّ سنده إلى عكرمة والحسن بن أبي الحسن – كما ذكر الإمام البيهقي [٤] – مقطوع لا يقوى أمام الموقوف على ابن عباس وغيره من الصحابة الكرام والذين هم كما قال الإمام الألوسي – رحمه الله – :" الأقوى في الاستدلال النقل عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي والتنزيل"[٥]

كما أنَّ هذا الأثر تحدث عن ترتيب نزول السور وهي قضية غير متفق عليها بين العلماء ، نظراً لاضطراب الروايات فيها ، أمَّا أثر ابن عباس – ﷺ – (والثابت بإسناد جيد كما سبق ذكره) فقد جرى حسب الترتيب المصحفي وهو ما اتفق عليه العلماء . [٦]

٣ – استدلوا بما عزاه السيوطي لأبي بكر محمد بن الحارث بن أبيض بسنده عن جابر بن زيد [٧] حيث ذكر أنّ سورة الإنسان مدنية .

قلت : وهذا الأثر يعتريه الضعف من وجهين :

أحدهما : في سنده ، حسان بن إبراهيم الكرماني ، وهو وإن كان صدوقاً يخطئ ويكثر تفرده بالمناكير . [٨]

---

(١) [دلائل النبوة ٧ – ١٤٢ ط / دار التراث / الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م].

(٢) [هو : عكرمة بن عبد الله البربري ، أبو عبد الله : مولى عبد الله بن عباس ، قال الشعبي : ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة ".. توفي سنة ١٠٥ هـ [تهذيب التهذيب ٧ – ٢٦٣].

(٣)[هو : الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد : من سادات التابعين ، وكبرائهم ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه . ولد بالمدينة ، ثم سكن البصرة وولي قضاءها لعمر بن عبد العزيز ثم استعفى .. أخرج له الجماعة . توفي ١١٠ هـ.[ميزان الاعتدال للذهبي ١ – ٥٢٧].

(٤) [دلائل النبوة ٧ – ١٤٢].

(٥) [روح المعاني ١ – ٥٩].

(٦) [ينظر : التفسير التحليلي لسورة النساء ص ٤٧ وما بعدها].

(٧) [هو : جابر بن زيد أبو الشعثاء الأزدي ثم الجوفي – بفتح الجيم وسكون الواو بعدها فاء – البصري مشهور بكنيته ثقة فقيه من الثالثة مات سنة ثلاث وتسعين ويقال ثلاث ومائة.[تقريب ١ – ١٣٦، وتذكرة الحفاظ لـ/ محمد بن طاهر بن القيسراني ، دار الصميعي/ الرياض ١٤١٥ هـ الأولى].

(٨) [تقريب التهذيب ١ – ١٥٧ رقم : ١١٩٤ ، وتهذيب الكمال ٦ – ٨ رقم : ١١٨٥].

ثانيهما : في سنده أيضاً ، أمية يعني ابن زيد الأزدي [١] وهو وإن كان مقبولاً من حيث الجملة لكن شرط ذلك أن يتابع في روايته فأمَّا حيث لا يتابع في رواية فإنَّه يكون في مثل هذه الرواية ليّن الحديث على ما أفاده الحافظ ابن حجر في مقدمة تقريبه [٢] وهذه الرواية مما لم يتابع عليها أمية بشهادة الحافظ السيوطي نفسه حيث عقب على هذا الأثر بقوله : قلت :" هذا سياق غريب وفي هذا الترتيب نظر "هـ. [٣]

٤ ــ استدلوا بما رُوي من أنَّ آية (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ..) [٤] نزلت في إطعام علي بن أبي طالب ــ ﷺ ــ بالمدينة مسكيناً ليلة ، ويتيماً ليلة ، وأسيراً أخرى ، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى أسير الحرب . [٥]

قلت : ما نسب إلى علي ــ ﷺ ــ في هذا الأثر لم يثبت كما سيأتي ذكره عند تفسير الآية الكريمة ، كما أنَّ إطعام هؤلاء المذكورين في الآية الكريمة من قبيل الصدقة عليهم فتشمل اليتيم أياً كان وكذلك المسكين وكذلك الأسير سواء كان في قبضة المسلمين أم غيرهم إذا وجد لذلك سبيل أي أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما أنَّ هناك معاني أخرى للأسير منها الزوجة أو الخادم وليس أسير الحرب فقط .

وسيأتي زيادة توضيح لهذا عند تفسير الآية الكريمة .

ثالثاً : أمَّا قول من قال بأنها مدنية إلا قوله ــ تعالى ــ :(وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً) فهي مكية وهو ما نسب إلى الحسن وعكرمة ، والكلبي [٦] أو قول من قال من أنَّ أوّلها مدني إلى قوله ــ تعالى ــ (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً) فهي مكية إلى آخر السورة وهو

(١) [تقريب التهذيب ١ ــ ١١٤ رقم : ٥٥٤ ، وتهذيب الكمال ٣ ــ ٣٣٢ رقم : ٥٥٥].
(٢) [تقريب التهذيب ١ ــ ٥].
(٣) [الإتقان ١ – ٧٣].
(٤) [سورة الإنسان آية رقم : ٨].
(٥) [التحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٠].
(٦) [ينظر : زاد المسير ٨ – ٤٢٧ ، والتحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٠ . والكلبي هو : هو محمد ابن السائب ابن بشير الكلبي ، أبو النضر الكوفي النسّابة المفسر متهم بالكذب ورمي بالرفض .[تقريب التهذيب ٢ ــ ١٦٣].

ما حكاه الماوردي [١] فهو مما لا يقوم على دليل ، بل الدليل قائم على رده وذلك فيما يلي :

أولاً : سبق تضعيف القول بنزولها بالمدينة أصلا وبالتالي فلا يقبل بأن يقال بأنها مدنية إلا بعض آيات من آخرها خاصة مع افتقاد الدليل ثانياً : إذا كانت هذه الآيات مستثناة من مدنية السورة (على حد ما ذكر هؤلاء – فكيف كانت تعدّ في مكة ؟ إنهم لم يذكروا أنَّ تلك الآيات من أية سورة كانت تعدُّ في مكة إلى أن نزلت سورة الإنسان بالمدينة وهذا غريب . ولم يعينوا أنه في أية سورة كان مقروءاً .؟ [٢]

فالرَّاجح إذاً من هذه الأقوال الثلاثة في مكية نزول سورة الإنسان أو مدنيتها هو القول الأول القائل بمكية نزول سورة الإنسان دون استثناء شيء منها لصحة سنده وعدم ورود ما ورد على غيره من القولين الآخرين .

وإذا اتجهنا اتجاهاً آخر لتأكيد مكية هذه السورة الكريمة وهو أن ننظر إلى أسلوبها وأغراضها فإنَّنا سنجد مكيتها ظاهرة ..

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور :" والأصح أنها مكية فإنَّ أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية "هـ. [٣]

ويوضح الأستاذ سيد قطب هذا المعنى أكثر فيقول :" في بعض الروايات أنّ هذه السورة مدنية ، ولكنها مكية ، ومكيتها ظاهرة جداً ، في موضوعها وفي سياقها ، وفي سماتها كلّها . لهذا رجّحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها . بل نحن نلمح من سياقها أنّها من بواكير ما نزل من القرآن المكي .. تشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الغليظ كما يشي به توجيه الرسول – ﷺ – إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ، مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول – ﷺ – على الحق الذي نزل عليه وعدم الميل إلى ما يدهنون به .. كما جاء في سورة القلم ، وفي سورة المزمل ، وفي سورة المدثر ، مما هو

(١) [النكت والعيون ٦ــ ١٦١ دار الكتب العلمية بيروت].
(٢) [ينظر التحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٠].
(٣) [المصدر السابق ١٤ – ٣٧٠].

قريب من التوجيه في هذه السورة .. واحتمال أنّ هذه السورة مدنية – في نظرنا– هو احتمال ضعيف جداً ، يمكن عدم اعتباره "هـ. [١]

أمّا ثالث نقاط هذا التمهيد وهو بيان عدد آيات هذه السورة الكريمة :

فقد اتفق العادّون على عدّ آيها إحدى وثلاثين كما ذكر الطاهر بن عاشور . [٢]

وكذلك قال الإمام الألوسي : وآيتها إحدى وثلاثون آية بلا خلاف . [٣]

وكذلك ذكرها الإمام السيوطي في إتقانه في القسم الذي لم يختلف فيه – أي في عدد آياته – وذكر أنّها إحدى وثلاثون آية [٤] والله أعلم .

أمّا رابع النقاط في هذا التمهيد وهو بيان فضل السورة الكريمة :

فبادئ ذي بدء أقول :

لا شك أنّ قراءة القرآن الكريم بصفة عامة أي دون تخصيص سورة عن أخرى – فيها ما فيها من الثواب العظيم والأجر الجزيل ، وقد ثبتت الأحاديث الصحيحة في هذا الشأن كقوله- ﷺ -: " من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف "[٥]

وقوله – ﷺ –: " مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السَّفَرة الكرام البررة ، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهَده وهو عليه شديدٌ فله أجران"[٦]

أمّا تخصيص قراءة سورة بعينها وإثبات الفضل لقراءتها فمنه الصحيح الثابت عن رسول الله – ﷺ – كقوله : " اقرأُوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنّهما غمامتان أو كأنهما غَيَايَتَان أو كأنهما

(١) [في ظلال القرآن ٦ – ٣٧٧٧].
(٢) [التحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٠].
(٣) [روح المعاني ١٦ – ٢٥٨].
(٤) [الإتقان ١ – ١٩٠ النوع التاسع عشر].
(٥) [سنن الترمذي ٥ – ١٧٥ كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر رقم : ٢٩١٠ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب].
(٦) [صحيح البخاري [٨ – ٥٦٠ كتاب التفسير ، باب تفسير سورة عبس رقم : ٤٩٣٧]. وفي صحيح مسلم [١ – ٢٤٤ كتاب الصلاة ، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه رقم: ١٨٣١] بلفظ : الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران].

فرْقان من طير صوافّ [١] تحاجّان عن أصحابهما اقرأُوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركَها حسرة ولا تستطيعها البطلة قال معاوية : بلغني أنّ البطلة السحرة"[٢]

ومنه ما هو غير ثابت عنه – ﷺ – وذلك كحديث أبيّ بن كعب المشهور في فضائل السور " سورة سورة " يذكره الواحدي والثعالبي في أوائل السور والزمخشري في آخرها ، وهو حديث موضوع مكذوب على رسول الله – ﷺ – كما ذكر العلماء [٣]

وسورتنا هذه لم يثبت في فضل قراءتها حديثٌ صحيح وإنما المذكور فيها حديثُ أبيّ حيث قال الزمخشري في آخر تفسيره لهذه السورة الكريمة :" عن رسول الله – ﷺ – " من قرأ سورة هل أتى على الإنسان كان جزاؤه على الله جنة وحريراً ".[٤]

وعلى كلٍّ فسورتنا هذه وإن لم تخص – كغيرها من سور كثيرة – بفضل خاص لقراءتها فهي في نهاية الأمر داخلة في فضل الثواب العام لقراءة كتاب الله – تعالى – . والله أعلم .

(١) [قال أهل اللغة : الغمامة والغاية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها قال العلماء : المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين ، وقوله – ﷺ – (أو كأنّما فرقان من طير صواف) وفي رواية أخرى (كأنهما حزقان من طير صاف) . الفرقان – بكسر الفاء وإسكان الراء – والحزقان – بكسر الحاء المهملة وإسكان الزاي – ومعناهما واحد وهما قطيعان وجماعتان يقال في الواحد فرق وحزق وحزيقة أي جماعة . [شرح النووي لصحيح مسلم ٣ – ٢٥٦ دار الغد].
(٢) [صحيح مسلم كتاب الصلاة ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة رقم : ١٨٤٣]
(٣) [قال ابن الصلاح في مقدمته في النوع الحادي والعشرين (معرفة الموضوع):" قد وُضعت أحاديث طويلة يشهد بوضعها ركاكة ألفاظها ومعانيها ... إلى أن قال :" وهكذا حال الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي – ﷺ – في فضل القرآن سورة فسورة . بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه ، وأن أثر الوضع لبين عليه . ولقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم . والله أعلم . [مقدمة ابن الصلاح ص ٤٧ مكتبة المتنبي].
(٤) [الكشاف ٤ – ٢٠١ وذكره البيضاوي كذلك ، وعلق الشهاب الخفاجي بقوله :" هو حديث موضوع "هـ.[حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ٨ – ٢٩٥ ونبه العلامة ابن حجر في تخريجه لأحاديث الكشاف للزمخشري إلى وضعه . ينظر : الكافي الشاف لابن حجر على هامش تفسير الكشاف للزمخشري ٦– ٦٨٥ ، / ١ – ٢٨٥ / ط / مكتبة العبيكان / الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ على محمد معوض].

أمَّا خامس نقاط هذا التمهيد وهو الحديث عن مناسبة سورة الإنسان لسورة القيامة : فإن هذا يتطلب بيان أمرين :

أولهما : هل لابُدّ من تطلب المناسبة بين سور القرآن الكريم ؟

ثانيهما: كيفية التعرف على المناسبة.

أمَّا الأمر الأول : فإنَّ القارئ الكريم ليعجب أشد العجب عند ما يرى بعض العلماء وهو يمنع من البحث عن المناسبة ليس بين السور فحسب بل بين آيات السورة الواحدة .

وأشهر من قال بذلك : الشيخ العز بن عبد السلام [١] والإمام الشوكاني [٢] – رحمهما الله تعالى –.

وفيما يلي ذكر كلام كلٍّ منهما في هذا الشأن مع الرّد الأمثل عليهما .

قال الشيخ العز بن عبد السلام – رحمه الله –:" المناسبةُ علمٌ حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمرٍ ممتد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسبابٍ مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربطَ ذلك فهو متكلف بما لا يقدر إلا بربطٍ ركيك يصانُ عن مثله حسن الحديث ؛ فضلاً عن أحسنه ؛ فإنَّ القرآنَ نزلَ في نيفٍ وعشرين سنة ، في أحكامٍ مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربطُ بعضه ببعض"هـ[٣] .

هذا ما قاله الشيخ العز بن عبد السلام .

وهاك ما قاله الإمام الشوكاني – رحمه الله – وذلك عند تفسيره لقوله – تعالى – من سورة البقرة (يَا بَنِي

(١) [هو : عبد العزيز بن عبد السلام عز الدين السلمي الدمشقي ثم المصري العلامة ذو الفنون . من مؤلفاته تفسير مختصر في مجلد ، وصنف القواعد الكبرى والصغرى.. توفي بمصر سنة ستين وستمائة .[طبقات المفسرين ١ – ٢٤٢ للأدنروي /مكتبة العلوم والحكم/ المدينة المنورة ،ومعجم المفسرين ١ – ٢٨٧ لـ/ عادل نويهض/ مؤسسة نويهض الثقافية).

(٢) [هو : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد الشوكاني ، أبو عبد الله [١١٧٣ – ١٢٥٠ هـ = ١٧٦٠– ١٨٣٤ م] من كبار علماء اليمن ، له أكثر من مائة كتاب منها :" فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير" ومطلع البدرين ومجمع البحرين في التفسير أيضاً ، و جواب السائل في تفسير والقمر قدرناه منازل "[معجم المفسرين ٢ – ٥٩٣ ، والأعلام للزركلي ٧ – ١٩١ بيروت].

(٣) [البرهان ١ – ٣٧ ، والإتقان ٢ – ٢٨٩].

إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) [١]

حيث قال :" اعلم أنَّ كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته ، واستغرقوا أوقاتهم في فنٍّ لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله – سبحانه – وذلك أنَّهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفاتٍ ، وتعسّفات يتبرأ منها الإنصاف ، ويتنزّه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الربّ – سبحانه – حتى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي ... وإنَّ هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أنَّ هذا القرآن مازال يترل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لترولـه منذ نزول الوحي على رسول الله – ﷺ – ... وكلّ عاقل فضلاً عن عالمٍ لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها بل قد تكون متناقضة كتحريم أمرٍ كان حلالاً ، وتحليل أمرٍ كان حراماً ... وتارة يكون الكلام مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى ، وتارة مع من حضر ... وطوراً في أمر دنيا ، وطوراً في أمر آخرة...

وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف .. فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار ... – إلى أنْ قال بعد كلام يطول ذكره –:" وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن ، لأنَّ الكلامَ هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر – آدم عليه السلام – فإذا قال متكلف : كيف ناسب هذا ما قبله ؟ قلنا : لا كيف ، فدع عنك نهباً صيح في حجراته . أو هات حديثاً ما حديث الرواحل "هـ[٢]

(١) [سورة البقرة آية رقم : ٤٠].

(٢) [فتح القدير ١ – ٧٢ دار الفكر / بيروت]. باختصار . وقوله في آخر كلامه :" فدع عنك نهباً .. الخ . قال ابن منظور – في مادة حجرَ –:" قال ابن الأثير : في الحديث ؛ حديث علي – رضي الله عنه – : الحكم لله ، ودع عنك نهباً صيح في حجراته . قال : هو مثل للعرب يضرب لمن ذهب

هذا ما قاله هذان الشيخان العالمان الجليلان . ولو أنّ هذا الكلام صدر ممن هو أقل منهما علماً ومكانةً بين العلماء لما توقفنا عنده ولما أصغينا له .

ذلك أنّ البحث عن المناسبات – سواء بين الآيات بعضها البعض أم بين السور كذلك – هو من الأمور العظيمة في تفسير كتاب الله – تعالى – بل يكاد المنصف أنْ يقول : إنّ من أعظم مظاهر إعجاز هذا الكتاب العظيم هو ما يوجد بين آياته وسوره من مناسبات " وأقصى ما يجوز للمخالف أن يقوله في هذا الشأن هو المنع من المبالغة في إيجاد المناسبة على أيّ وجهٍ كان .. وهذا ما نتفق عليه جميعاً ، أمّا أن يأتي فيمنع المناسبة بين الآيات والسور أصلاً بحجّة نزول القرآن على فترات متباعدة وأماكن مختلفة فهو من الغبن لكتاب الله – تعالى – .

وقد أجاب وليُّ الله : محمد بن أحمد الملوي [1] على تلك الشبهة فقال :" قد وهم من قال : لا يطلب للآي الكريمة مناسبة ، لأنّها على حسب الوقائع المفرّقة..

وفصلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً ، وتأصيلاً ، فالمصحف على وَفق ما في اللوح المحفوظ ، مرتبة سوره كلُّها وآياته بالتوقيف .. ومن المعجز البين أسلوبهُ ونظمه الباهر ، والذي ينبغي في كل آية أنْ يبحث أوّل كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ؛ ثم المستقلة ، ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟

من ماله شيء ثم ذهب بعده ما هو أجلّ منه . وهو صدر بيت لامرئ القيس :

فدع عنك نهباً صيح في حجراته
ولكن حديثاً ما حديث الرواحل .

أي : دع النهب الذي نهب من نواحيك ، وحدثني حديث الرواحل وهي الإبل التي ذهبتَ بها ما فعلت ؟" [لسان ٤ – ١٦٨ ، وينظر : النهاية في غريب الأثر ١ – ٣٤٢ – باب الحاء مع الجيم – لـ/ أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير المحدث)– ط – المكتبة العلمية – بيروت ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م تحقيق : طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي].

(١) [هو الإمام محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف أبو عبد الله ، ولي الدين ، العثماني الديباجي الشافعي المعروف بابن المنفلوطي وبالملوي ولد سنة ٧١٣ برع في التفسير ، والفقه ، والأصول ، والتصوف . كثير العبادة توفي سنة ٧٧٤ هـ = ١٣٧٢ م .[معجم المفسرين ٢ – ٤٨٣ ، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣–٣٩٥ لابن حجر العسقلاني – ط – القاهرة ١٩٦٦ م].

ففي ذلك علم جمٌّ وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها ، وما سيقت له "هـ" [1] .

فالذي ينبغي التعويل عليه في هذه المسألة إذاً هو تطلّب المناسبة ، بل إنّ هذا من تمام الإسهام في بيان إعجاز القرآن الكريم . والله أعلم

أمّا الأمر الثاني من النقطة الخامسة وهو بيان كيفية البحث عن المناسبة : فإنّ العلماء يسلكون في هذا الأمر مسلكين :

الأول : مسلك خاص ومعناه عقد المناسبة بين آيتين من السورة السابقة واللاحقة سواء كانتا في أول السورتين أو وسطهما أو خاتمتهما ، وغالباً ما يكون ذلك بين خاتمة السابقة وفاتحة اللاحقة ، وإذا ما نظرنا بتلك النظرة الخاصة أو سلكنا هذا المسلك الخاص في سورتنا هذه – أعني سورة الإنسان – وسورة القيامة فإنّنا نجد كثيراً من آياتهما تتناسب مع بعضها البعض ومن ذلك :

١ – ختام سورة القيامة بالاستفهام التقريري (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ المَوْتَى) [2] وبداية سورة الإنسان به (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً) [3] وفي هذا من الاتصال العجيب بين السورتين .

٢ – الحديث عن الإنسان في أكثر من موقع في سورة القيامة ؛ كقوله – تعالى – :(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) [4] وقوله :(بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) [5] وقوله(بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [6] .

وكذلك الحديث عنه في سورة الإنسان (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ..) [7] إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) [8] .

وهذا فيه ما فيه من الاهتمام بذكر الإنسان من بدايته إلى نهايته .

٣ – التهديد في كلتا السورتين للإنسان الكافر .. ففي سورة القيامة :(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ

---

(١) [البرهان ١ – ٣٧ والإتقان ٢ – ٢٨٩].
(٢) [سورة القيامة آية رقم : ٤٠].
(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ١].
(٤) [سورة القيامة آية رقم : ٣].
(٥) [سورة القيامة آية رقم : ٥].
(٦) [سورة القيامة آية رقم : ١٤].
(٧) [سورة الإنسان آية رقم : ١].
(٨) [سورة الإنسان آية رقم : ٢].

أن يُفعَلَ بها فَاقِرَةٌ) (1) وقوله :(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) (2).

وفى سورة الإنسان :(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيراً) (3) وقوله : (وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) (4).

٤ – إثبات البشرى للإنسان السويّ في كلتا السورتين ففي سورة القيامة :(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (5) وفى سورة الإنسان (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً) (6) إلى قوله – تعالى –:(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً) (7).

هذا هو المسلك الخاص وقد يجد الناظر بين السورتين أكثر من ذلك.

أما المسلك الثاني للتعرف على المناسبة فهو ما يسميه العلماء بالمسلك العام لكلتا السورتين ، وهذا المسلك أعمق نظراً وأكثر تفكراً وأعظم إفادة يعتمد على التأمل الجيد في سرّ تسمية كلتا السورتين باسميهما ، والموضوع الذي تدور عليه آيات السورتين .

وإذا نظرنا بهذه النظرة لسورة الإنسان مع سورة القيامة فنقول وبالله التوفيق :

سبق القول بأنّ موضوع سورة الإنسان يدور حول التذكير والتكريم للإنسان المخلوق بعناية رب العالمين – سبحانه وتعالى – لذلك سميت السورة باسمه زيادة تذكير وتكريم في نفس الوقت.

فإذا ما اتجهنا إلى سورة القيامة لنرى الموضوع الذي تشتمل عليه آيات السورة الكريمة نجد أنها تدور حول حقيقة إثبات البعث ، والرد على منكريه من بنى الإنسان عن طريق التذكير بنشأتهم الأولى (أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى) (8) فالذي قدر على البدء قادر على الإعادة لاشك

(1)[سورة القيامة آية رقم : ٢٤ ، ٢٥].
(2) [سورة القيامة آية رقم : ٣٤].
(3) [سورة الإنسان آية رقم : ٤].
(4) [سورة الإنسان آية رقم : ٣١].
(5) [سورة القيامة آية رقم : ٢٢ ، ٢٣].
(6) [سورة الإنسان آية رقم : ٥].
(7) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٢].

(8) [سورة القيامة آية رقم : ٣٦ – ٤٠].

ثم تواصل سورة الإنسان – بعد ذلك – التأكيد على هذا الدليل ، فتذكر بخلق الإنسان وكيف كان في مراحل خلقه الأولى شيئاً لا يذكر ولا قيمة له (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً) مع إظهار المزيد من العناية بهذا الإنسان قطعاً لأعذاره وإظهاراً لفضل الله عليه (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) (1) فكأن السورتين – بما تحويه من تذكير يعد بمثابة الدليل على إثبات البعث والإعادة – روح واحدة وقلب واحد ،

تلك محاولة للوقوف على مناسبة سورة الإنسان لسورة القيامة وقد يجد المتأمل – إذا ما سلك هذا المسلك العام لمعرفة المناسبة بين السورتين – أكثر من معنى يربط بينهما . والله أعلم .

أمّا سادس نقاط هذا التمهيد وهو استعراض السورة بوجه عام :

فهناك من المفسرين من تميّزوا بهذا الجانب التفسيري وهو حصر أغراض السورة واستحضار موضوعاتها قبل البدء في التفسير التحليلي لها ، ومن هؤلاء الطاهر بن عاشور والأستاذ : سيد قطب.

يقول الطاهر بن عاشور تحت عنوان :" أغراضها : التذكير بأنّ كل إنسان كُوِّن بعد أنْ لم يكن فكيف يقضى باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه وإثبات أنّ الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكراً لخالقه ومحذّر من الإشراك به .

وإثبات الجزاء على الحالَين مع شيء من وصف ذلك الجزاء بحالته والإطناب في وصف جزاء الشاكرين .

وأدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل فمن الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها فعبد غيره .

وتثبيت النبي – ﷺ – على القيام بأعباء الرسالة والصبر على ما يلحقه في ذلك ، والتحذير من أن يلين للكافرين، والإشارة إلى أنّ الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بها اصطفاه له وبالإقبال على عبادته . والأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات النهار "هـ (2).

(1) [سورة الإنسان آية رقم : ٢ ، ٣].

(2) [التحرير والتنوير ١٤ – ٣٧١].

أما الأستاذ سيد قطب فقد استقصى أكثر من ذلك وأفاض في ذكر موضوعات السورة وأغراضها .. يقول – رحمه الله –:" والسورة في مجموعها هتاف رخي ندي إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وابتغاء رضاه ، وتذكر نعمته ، والإحساس بفضله ، واتقاء عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء .

وهي تبدأ بلمسة رقيقة للقلب البشرى : أين كان قبل أن يكون ؟ من الذي أوجده ؟ ومن الذي جعله شيئاً مذكوراً في هذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود :(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ؟) ...

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته ، وحكمة الله في خلقه ، وتذويده بطاقاته ومداركه :(إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً).

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لمصيره الذي يختاره :(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) [1] ..

إلى أنْ يقول – بعد كلام يطول ذكره –:" تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة ، على أساس الابتلاء ، وتختم ببيان عاقبة الابتلاء ، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء ، فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير ، لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره . غير واع ولا مدرك ، وهو مخلوق ليبتلى ، وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء ... "هـ [2] .

كان هذا استعراضاً عاماً للسورة الكريمة من كتابي التحرير والظلال لا يكاد يختلف بعضه عن بعض وقد أفدت من هذا الكلام عند بيان تسمية السورة بـ" الإنسان " محاولاً الاختصار وبيان أنّ السورة تدور حول موضوعين أساسين هما التذكير والتكريم . فلله الحمد والمنة.

وأكون بهذه النقطة الأخيرة من التمهيد – وهي بيان أغراض السورة – أقول – أكون بهذا قد ختمت هذا التمهيد . ليكون عوناً على تفسير السورة تفسيراً تحليلياً وهو ما سيلي ذكره .

والله الموفق

(١) [سورة الإنسان آية رقم : ٣].

(٢) [الظلال ٦ – ٣٧٧٧ ، ٣٧٧٨].

التفسير التحليلي لسورة الإنسان

يقول الله – تعالى –:﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً [1] ﴾

تبدأ السورة الكريمة بهذا الاستفهام التقريري جذباً للانتباه وتحريكاً للعقول وتشويقاً إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام "[2]

وفي الاستفهام التقريري لا ينتظر من المخاطب إلا الاعتراف بما استفهم عنه " كما تقول : هل رأيت صنيع فلان ، وقد علمت أنه قد رآه ، وتقول : هل وعظتك ، هل أعطيتك ، ومقصودك أن تقرّره بأنك قد أعطيته ووعظته

ولذلك قال العلماء إنّ " هل " في الآية الكريمة بمعنى " قد " أي (قد أتى على الإنسان ..) وإنما اختير الاستفهام للمعنى السابق ذكره والدليل على أنّ " هل " هاهنا ليست بمعنى الاستفهام وجهان :

الأول : ما روي أنّ الصديق – ﷺ – لما سمع هذه الآية قال: يا ليتها كانت تمت فلا نبتلى . أي ليت المدة التي أتت على آدم لم تكن شيئاً مذكوراً تمت على ذلك فلا يلد ولا يبتلى أولاده[3]، ولو كان ذلك استفهاماً لما قال : ليتها تمت ، لأنّ الاستفهام ، إنما يجاب بـ " لا " أو " نعم " فإذا كان المراد هو الخبر ، فحينئذ يحسن ذلك الجواب

الثاني : أنّ الإستفهام على الله – تعالى – محال فلا بُدّ من حمله على الخبر "[4]

وإذا كانت هذه المدة أو هذا الحين من الدهر قد أتى على الإنسان فمن المراد بالإنسان في الآية الكريمة ؟ ومتى كان هذا الحين أو هذه المدة التي أتت ولم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً؟

ذهب أكثرُ المفسرين إلى أنّ المراد بـ " الإنسان " في الآية

(١) [سورة الإنسان آية رقم : ١].

(٢) [التحرير والتنوير ١٤ – ٣٧١].

(٣) [الجامع لأحكام القرآن ١٩ – ١٢٠ . وقول الصديق – ﷺ – : يا ليتها .. الخ نسب أيضاً لعمر بن الخطاب – ﷺ – [ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٩ – ١٢٠ والزهد لابن المبارك ١ – ٧٩ دار الكتب العلمية / بيروت . وعُزي هذا الأثر في كنز العمال [لـ علاء الدين علي المتقي البرهان فوري / بيروت] لـ لابن المبارك وأبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر].

(٤) [مفاتيح الغيب ١٦ – ٤٩]. بتصرف

الكريمة هو جنس الإنسان وأنَّ (أل) فيه للاستغراق ، وأنَّ الحين الذي أتى عليه لم يكن فيه شيئاً مذكوراً (١) : إمَّا حال عدمه وإمَّا حال كونه نطفة وانتقاله من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه وأنَّ معنى كونه غير مذكور في هذه المدة :

إمَّا كونه غير موجود ، فقد يسمى الموجود (شيئاً) فهو مذكور بهذا الوجه ، وإمَّا كونه غير مذكور أي لم يكن يسمّى ولا يتحدث عنه بذاته .

" والمعنى هنا : قد أتى أو (هل أتى على) جنس (الإنسان) قبل زمان قريب طائفة محدودة مقدرة كائنة من الزمان الممتد (لم يكن شيئاً مذكوراً) بل غير مذكور بالإنسانية أصلاً ، أي غير معروف بها .

والمراد أنَّه معدوم لم يوجد بنفسه ، بل كان الموجود أصله مما لا يسمي إنساناً ، ولا يعرف بعنوان الإنسانية وهو مادته البعيدة من العناصر أو المتوسطة وهي الأغذية ، أو القريبة وهي النطفة المتولدة من الأغذية المخلوقة من العناصر .

وإطلاق " الإنسان " على مادته مجاز بجعل ما هو بالقوة منزلاً منزلة ما هو بالفعل ، أو باعتبار ما صار إليه "(٢)

وقيل المراد بالإنسان في الآية الكريمة: آدمُ – عليه السلام – والحين المذكور في الآية على هذا القول مختلف فيه : فقيل : لا يعرف مقداره ، وقيل مقداره أربعون سنة مرت قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقيل مائة وأربعون سنة ، أربعون منها طيناً وأربعون حمأ مسنوناً وأخرى صلصالاً ، وقيل مائة وستون بزيادة أربعين أخرى كان فيها تراباً .

وعدم ذكره فيها : أنه لم يكن يُعرف ولا يدرى ما اسمه ، ولا ما يراد به ، أو لم يكن له قدر عند الخليقة ، ثمّ لمّا عرّف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة وحمّله الأمانة التي امتنع عنها السماوات والأرض والجبال ظهرَ فضله على الكلّ فصار مذكوراً .

(١) [الحين في اللغة : الدهر وقيل : وقت من الدهر مبهم يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت يكون سنة وأكثر من ذلك وخصّ بعضهم به أربعين سنة أو سبع سنين أو سنتين أو ستة أشهر أو شهرين أو كل غدوة وعشية ويوم القيامة والمدة والجمع : أحيان [القاموس المحيط ١ – ١٥٣٤ ولسان العرب ١٣ – ١٣٣].

(٢)[ينظر : المحرر الوجيز ٥ – ٤٠٨ والتحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٢ وروح المعاني ١٦ – ٢٦٠].

أو أنَّ المعنى لم يكن شيئاً يذكر بل كان معدوماً ، والمعدوم ليس بشيء ، فآدم – عليه السلام – مضت عليه أزمنة ، وما كان شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة ففي الكلام تقديم وتأخير تقديره :" هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً "(١)

والراجح من هذين القولين في المراد بالإنسان في الآية الكريمة : القول الأول وذلك لما يأتي:

أولاً : أن أكثر الوجوه التي قيلت في الوجه الثاني تنطبق على كلّ إنسان عدا ما قيل فيه من الحين.

الثاني : أنَّ الله أعاد ذكر " الإنسان " مرة أخرى معرفاً بعد هذه الآية الكريمة (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ..) (٢) فهو عين الأول .

الثالث : أنَّ إعادته كذلك باسمه دون الضمير زيادة تأكيد وتوضيح .

الرابع : أنَّ العبرة فيه أكثر وأعم .

ويترتب على ما سبق ذكره معرفة موقع إعراب جملة (لم يكن شيئاً مذكوراً) في الآية الكريمة :

الأول : النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل : أتى عليه حين من الدهر غير مذكور .

الثاني : الرفع على الوصف " لحين " بتقدير ضمير رابط بمحذوف لدلالة لفظ " حين " على أنَّ العائد مجرور بحرف الظرفية حذف فيه مع جاره كقوله – تعالى –:(وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً) (٣) إذ التقدير : لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئاً . فالتقدير هنا : لم يكن فيه الإنسان شيئاً مذكوراً. أي كان معدوماً في زمن سبق "(٤)

بقي أن نقول : إنَّ " مذكوراً " وقعت وصفاً لـ " شيئاً " أريد به تقييد " شيئاً " أي شيئاً خاصاً وهو الموجود المعبر عنه باسمه المعين . ويخبر عنه بالأخبار والأحوال .

ذلك أنَّ الشيء اسم للموجود ، والمعدوم لا يذكر لأنه لا تعين له ، ولا يذكر إلا بعنوانه العام أو على وجه العموم في نحو قول الناس : المعدوم متوقف وجوده على فاعل . وقول الواقف : حبست على ذريتي ، ونحوه فإنَّ

(١) [ينظر : جامع البيان ١٢ – ١٢٥ والجامع لأحكام القرآن ١٠ – ٦٩١٠].

(٢) [مفاتيح الغيب ١٦ – ٤٩].

(٣) [سورة البقرة آية رقم : ٤٨].

(٤) [الكشاف ٤ – ١٩٤ والتحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٢].

ذلك ليس ذكراً لمعين ولكنه حكم على الأمر المقدر وجوده .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً [١] ﴾

هذه هي الآية الثانية من السورة الكريمة نرى من خلالها تواصل تذكير الله ـ تعالى ـ بخلق الإنسان ، وما أنعم به عليه في مراحل خلقه، وقدرة الله ـ تعالى ـ في ذلك فالآية تعدُّ " استئنافاً بيانياً مترتباً على التقرير الذي دلّ عليه (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً) لما فيه من التشويق .

والتقرير يقتضي الإقرار بذلك لا محالة لأنه معلوم بالضرورة ، فالسامع يتشوق لما يرد بعد هذا التقرير فقيل له : إنّ الله خلقه بعد أن كان معدوماً فأوجدَ نطفةً كانت معدومة ثم استخرج منها إنساناً ، فثبت تعلق الخلق بالإنسان بعد عدمه .

ولكن ما وجه التأكيد في الآية الكريمة (إنا خلقنا الإنسان ...) وما المراد بالإنسان ، وما هي النطفة الأمشاج، وما هو الابتلاء المقصود في الآية الكريمة ، ووجه ترتبه على خلق الإنسان من نطفة ، ومعنى (فجعلناه سميعاً بصيراً) ، ووجه ذكرهما دُون غيرهما من وجوه الإنعام على الإنسان ؟

تلك تساؤلات يقتضيها المقام للوصول إلى معنى الآية الكريمة على أحسن وجه بقدر الطاقة .

أمّا عن وجه التأكيد في الآية الكريمة فلتنزيل المشركين منزلة من ينكر أنّ الله خلق الإنسان لعدم جريهم على موجب العلم حيث عبدوا أصناماً لم يخلقوهم .

والإنسان في هذه الآية الكريمة (إنّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ..) هو كل نوع الإنسان .

وقد يقول قائل : إنّ هذا القول يشمل آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ وهما لم يخلقا من نطفة ويجرى أيضاً على عيسى ـ عليه السلام ـ على أقل تقدير ـ إذ لم يخلق من نطفة أمشاج أي من ماء الرجل وماء المرأة معاً .

أجيب بأنّ هذا من باب التغليب.[٢]

وبعبارة أخرى : الخلق جميعهم من نطفة عدا من استثنى كقوله ـ تعالى ـ :(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ

(١) [سورة الإنسان آية رقم : ٢].

(٢) [التحرير والتنوير ٤ – ٣٧٣ وينظر : روح المعاني ١٦ – ٢٦٠].

ـ:(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[١]

ولا يعني ذلك أنّ عيسى خلق من التراب ذاته ، وإنما سقنا ذلك لأن المقصود بالنطفة في الآية الكريمة هي ماء الرجل وماء المرأة بدليل قوله أمشاج[٢] ولم يكن عيسى ـ عليه السلام ـ كذلك ولا حواء ـ عليها السلام ـ فضلاً عن آدم ـ عليه السلام ـ.

فإذا ما دخل هؤلاء في هذا العموم فهو من باب التغليب .

أمّا المراد بالنطفة الأمشاج في الآية الكريمة :

فالنطفة أولاً : من حيث اللغة : هي ماء الرجل وماء المرأة وجمعها نُطَف [٣] والأمشاج [٤] : اختلاطهما معاً بإذن الله ـ تعالى ـ لبدء خلق الإنسان .

وتعدّ الآية الكريمة سبقاً علمياً يثبت حقيقة من حقائق الخلق " إذ كان السائد منذ عهد أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ قبل الميلاد) إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أنّ الجنين الإنساني يتكون من ماء الرجل فقط ، وأنّ رحم المرأة ليس سوى محضن له ، أو يتكون من دم

(١) [سورة آل عمران آية رقم : ٥٩].

(٢) [من الثابت طبياً أنه بالتقاء النطفتين : نطفة الزوج ونطفة المرأة تتكون النطفة الأمشاج (المختلطة) التي تمثل مرحلة الإخصاب بإذن الله ـ تعالى ـ وفي ذلك أخرج أحمد في مسنده : أنّ يهودياً مرّ برسول الله – ﷺ– وهو يحدث أصحابه ، فقالت قريش : يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبيّ . فقال لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي ، فقال : يا محمد ! ممّ يخلق الإنسان ؟ فقال رسول الله – ﷺ– : يا يهودي من كلٍّ يخلق : من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ".[ينظر تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ص ٤٠٨ د / زغلول النجار . ط / مكتبة الشروق الدولية – ط أولى ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م والحديث أخرجه أحمد في مسنده ١ــ ٤٦٥ رقم : ٤٤٣٨].

(٣) [المصباح المنير ٢ – ٦١١].

(٤) [الأمشاج : جمع مَشَج ـ بفتحتين ـ كسبب ، وأسباب ، أو مَشِج ـ بفتح فكسر ـ ككتف وأكتاف ، أو مشيج كشهيد وأشهاد ، ونصير وأنصار ، أي أخلاط . يقال : مشجت الشيء إذا خلطته ومزجته فهو مشيج وممشوج ، وهو صفة لنطفة ، ووصف بالجمع ، وهي مفردة لأنّ المراد بها مجموع ماء الرجل والمرأة ، والجمع قد يقال على ما فوق الواحد ، أو باعتبار الأجزاء المختلفة فيهما رقة وغلظاً وصفرة وبياضاً ، وقوة وضعفاً ، حتى اختص بعضها ببعض الأعضاء على ما أراده الله ـ تعالى ـ بحكمته فخلقه بقدرته .. والحاصل أنه نزل الموصوف منزلة الجمع ووصف بصفة أجزائه ...[روح المعاني ١٦ – ٢٦١].

الحيض فقط ، وأنّ ماء الرجل ليس سوى عامل مساعد (عاقد) له .

وبعد تصنيع المجهر في سنة ١٦٧٧م تمّ اكتشاف الحيوان المنوي (الحيمن) ، وانتشرت خرافة أنّ الجنين يخلق كاملاً في هيئة مصغرة جداً عند رأس الحيمن ، ثم تزداد أبعاده بمرور فترة الحمل .

وعلى الرّغم من التعرف على حويصلة البييضة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي إلا أنّ البييضة لم تكتشف إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يعرف أنّ كلاً من الحيمن والبييضة من خلايا الجسم إلا في سنة ١٨٥٩م ، وفى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي تمت ملاحظة عملية إخصاب البييضة بواسطة الحيمن ، وهذه الحقيقة قررها الرسول – ﷺ – من قبل اثني عشر قرناً ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده أنّ يهودياً مرّ برسول الله – ﷺ – وهو يحدث أصحابه فقالت قريش : يا يهوديّ إنّ هذا يزعم أنه نبيّ ، فقال : لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبيّ ، فقال : يا محمد ! ممّ يخلق الإنسان ؟ فقال رسول الله – ﷺ – يا يهودي : منْ كلٍّ يخلق ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة .[1]

وعلى ذلك فالمراد من النطفة الأمشاج هي النطفة المختلطة وهى الناتجة عن التقاء النطفتين الأنثوية والذكرية ، والمعروفة علمياً باسم اللقيحة المخصبة (zygote)[2] .

هذا هو ما أثبته العلم الآن حقيقة واقعة وقد أثبته القرآن الكريم منذ عهد بعيد .

ونعود إلى الآية الكريمة لنسأل : ما معنى الابتلاء المترتب على خلق الإنسان من نطفة أمشاج (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ..) ؟

يذهب العلماء في ذلك إلى معنيين لهذه الكلمة " نبتليه " في تفسير الآية الكريمة :

أولاً :- أن معنى" نبتليه" نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة ..إلى آخره ، أو ناقلين له " أي في بطن أمه " من حال

(١) [أخرجه أحمد في مسنده ١ – ٤٦٥ رقم : ٤٤٣٨].

(٢) [ينظر : جريدة الأهرام عدد ٤ / ١٠ / ٢٠٠٤ م ص ١٣ بقلم د/ زغلول النجار " وينظر تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ص ٤٠٨].

إلى حال فسمي ذلك ابتلاء على طريق الاستعارة ويكون موقع " نبتليه " من الأعراب على هذا الوجه " حال مصاحبة ".

ثانياً : أنّ " نبتليه " هنا من الابتلاء بمعنى الاختبار أي نختبره بالتكليف فتكون الكلمة " نبتليه " حال مقدرة لأنه – تعالى – حين خلقه من نطفة لم يكن مبتلياً له بالتكليف في ذلك الوقت .[1]

وكأنّ هذه الكلمة " نبتليه " بمعنى الاختبار قد أجابت عن سؤال مؤداه : لماذا يا رب خلقت الإنسان هكذا أمشاجاً ذا طبائع مختلفة ، غرستها فيه منذ كان نطفة ، ثم نقلتها إلى أفراده بعد أن شبّوا وكبروا وتفرقوا على وجه البسيطة ؟

قال – تعالى – في جواب هذا السؤال : إنّا خلقناه كذلك (نبتليه) ، أي مريدين ابتلاءه واختباره فيما نوحيه إليه من الشرائع والتعاليم ، وفيما نمهده أمامه من سبل التكاليف ، لنرى : أيكفر أم يشكر ؟ ويستقيم في سيره أم يضل ويعثر ؟[2]

(١) [البحر المحيط ٨ – ٣٨٦ روح المعاني ١٦ – ٢٦٢ الكشاف ٤ – ١٩٥].

(٢) [تفسير جزء تبارك ص ١١٦ للأستاذ الشيخ / عبد القادر المغربي / مطابع الشعب].

وهنا يطرح سؤال آخر :

إذا كان الأمر كذلك وهو أنّ الله خلق الإنسان من نطفة أمشاج ليبتليه فعلام يفسر قوله بعد ذلك (فجعلناه سميعاً بصيراً) ، هل الابتلاء مترتب على وجود السمع والبصر أم أنّ السمع والبصر مترتبان على الابتلاء ؟ لاشك أنّ الابتلاء لا يكون إلا بعد استجماع الإنسان للسمع والبصر بل قد لا يكون الابتلاء إلا بعد إرشاد الإنسان إلى السبيل إثباتاً للحجة وقطعاً للأعذار فكان مقتضى الظاهر أنْ يقع " نبتليه " ليس بعد (فجعلناه سميعاً بصيراً) بل بعد (إنا هديناه السبيل) ؟

وللإجابة على هذا كله نسمع للطاهر بن عاشور إذ يقول :" وجملة " نبتليه " في موضع الحال من الإنسان وهى حال مقدرة .... وقد وقعت هذه الحال معترضة بين جملة " خلقنا " وبين " فجعلناه سميعاً بصيراً " لأنّ الابتلاء ، أي التكليف الذي يظهر به امتثاله أو عصيانه إنما يكون بعد هدايته إلى سبيل الخير ، فكان مقتضى الظاهر أن يقع " نبتليه " بعد جملة " إنّا هديناه السبيل " ولكنّه قدّم للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السعادة

والشقاوة . وجي بجملة " إنا هديناه السبيل " بياناً لجملة " نبتليه " تفنناً في نظم الكلام "هـ . (١)

ومن هنا تظهر حكمة ختام الآية الكريمة بنعمتي السمع والبصر لأنَّ سمع الإنسان وبصره أكثر تحصيلاً وتمييزاً في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل وبالنظر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه .. ويحتمل " أن يكون المراد بقوله (فجعلناه سميعاً بصيراً) جعلناه ذا عقل وإدراك يميز به الخير من الشرّ والحق من الباطل ، وإنما كان قوله (سميعاً بصيراً) دالاً على ذلك ، لأنَّ استجمام عقل الإنسان ، واستجماع قواه ومداركه – إنما يكون من طريق هاتين الحاستين : السمع والبصر" (٢) والله أعلم

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (٣)

ترتبط هذه الآية بسابقتها ارتباطاً وثيقاً فهي استئنافٌ بياني نشأ عن جملة " نبتليه " ولتفصيل جملة (فجعلناه سميعاً بصيراً) وتخلص إلى الوعيد على الكفر والوعد على الشكر .

وبالجملة فهي استكمال لما بدأه الله – تعالى – في هذه السورة من ذكر نعمه على الإنسان .

وقد ترتبط هذه الآية (إنا هديناه السبيل ...) بسابقتها (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ) على صورة سؤال مؤداه : أهذا يا رب كلُّ ما منحته الإنسان وسلحته به من نعمتي السمع والبصر – وبالضرورة كذلك نعمة العقل – إرادةَ الابتلاء والاختبار الذي كتبته عليه منذ خلقته ؟ أم هناك شئ آخر وراء ذلك ؟ فإنَّ عقل الإنسان مهما حصف ، ومداركه مهما استحكمت – تبقى معرضة للغي والزيغ مرة ، والحيرة والاضطراب مرة أخرى ؟

قال – تعالى –:(إِنَّا) فوق ما منحنا الإنسان من نعمة العقل والإدراك (هديناه): دللناه وأرشدناه وأريناه (السبيل).

وهداية السبيل – في الآية الكريمة– تمثيل لحال المرشد – والسبيل : الطريق الجادة – إلى ما فيه النفع بواسطة الرُسل إلى العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة التي هي سبب فوزه بالنعيم الأبدي ،

(١) [تحرير ١٤ – ٣٧٤ ، ٣٧٥].
(٢) [تفسير جزء تبارك ص ١١٦].
(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ٣].

بحال من يدلّ السائر على الطريق المؤدية إلى مقصده من سَيْره .

وهذا التمثيل ينحل إلى تشبيهات أجزاء الحالة المركَّبة المشبَّهة بأجزاء الحالة المشبَّه بها ، فالله – تعالى – كالهادي ، والإنسان يشبه السائر المتحير في الطريق ، وأعمال الدين تشبه الطريق ، وفوز المتبع لهدي الله يشبه البلوغ إلى المكان المطلوب .

وفي هذا نداء على أنَّ الله أرشد الإنسان إلى الحق وأنَّ بعض الناس أدخلوا على أنفسهم ضلال الاعتقاد ومفاسد الأعمال ، فمن برّأ نفسه من ذلك فهو الشاكر وغيره الكفور . (١)

" والهداية : هي دلالة بلطف .

وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه : الأول : الهداية التي عَمّ بجنسها كلَّ مكلّف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شئ بقدر فيه حسب احتماله كما قال – تعالى –:(رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (٢)

الثاني : الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء ، وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله – جلَّ وعلا –: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ) (٣) .

وهذان الوجهان للهداية مما يدخل في معنى قوله – تعالى –:(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) بمعنى أن هداية السبيل في الآية إما بإكرام الإنسان بالعقل والفطنة والمعارف الضرورية والتي يستطيع من خلالها التمييز وإمَّا كذلك بالتفضل عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

الثالث : التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعنيّ بقوله – جل وعلا –:(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)(٤)

الرابع : الهداية في الآخرة إلى الجنة المعنيّ بقوله – تعالى –:(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ..) إلى قوله – تعالى –:(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ..) (٥)

وهذه الهدايات الأربع – كما ذكر الراغب – مترتبة فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصحّ

(١) [ينظر : التحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٥ ، وتفسير جزء تبارك ص ١١٦].
(٢) [سورة طه آية رقم : ٥٠].
(٣) [سورة الأنبياء آية رقم : ٧٣].
(٤) [سورة محمد آية رقم : ١٧].
(٥) [سورة الأعراف آية رقم : ٤٣].

تكليفه ، ومن لم تحصل لـه الثانيـة لا تحصل لـه الثالثة والرابعة ومن حصلَ له الرابع فقد حَصلَ له الثلاث التي قبلها ، ومن حصل لـه الثالث فقد حصل لـه اللذان قبْله . ثم ينعكس فقد تحصل الأولى ولا يحصـل لـه الثـاني ولا يحصـل الثالث..."(١) .

وقولـه ــ تعالى ــ(إمَّـا شـاكراً وإمَّا كفوراً) حـالان مـن الهـاء فـي (هديناه) أي " إن شكر وكفـر فقد هديناه السبيل في الحالين "

و" إمَّا " في قولـه (إما شاكراً وإمَّا كفوراً) للتفصيل باعتبار تعدد الأحوال مع اتحاد الذات ، أي هديناه ودلّلناه على ما يوصل إلى المطلوب في حالتيه جميعا من الشكر والكفر .

أو تكون " إمَّا " للتقسيم للمهدي باختلاف الذوات والصفات أي : هديناه السبيل مقسوماً إليها بعضـهم شـاكر بالاهتداء للحق وبعضهم كفور بالإعراض عنه ، وحاصله : دلّلناه علـى الهدايـة والإسلام فمنهم مهتد مسلم ومنهم ضال كافر . (٢)

(١) [مفردات ص ٥٣٦].
(٢) [روح المعاني ١٦ – ٢٦٢ – ٢٦٣].

أو هما أي : " إما شاكراً وإما كفوراً " حالان من السبيل أي عرفناه السبيل إمّا سبيلاً شاكراً وإمـا سـبيلاً كفـوراً ووصـف السـبيل بالشـكر والكفر مجازان"(٣) .

ولم يقل " شـكوراً " في مقابلـة " كفوراً " إما محافظة على الفواصل – وهو ما لا يشفي غليلاً في تفسير كتاب الله ــ ﷻ ــ وإمّا أنّ الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر لذلك جاء " كفـوراً " بصيغة المبالغة . (٤)

ومما يترتب على هذا التفصيل أو هذا التقسيم لحال الإنسان من كونه إما شاكراً وإما كفوراً بيان مآلهما وجزاءهما فقال ــ تعالى ــ:﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً

(٣) [تفسير النسفي ٢ – ٧٥٦].
(٤) [تفسير البيضاوي ٢ ــ ٥٥١ والبحر المحيط ٨ ــ ٣٨٧].

وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾(١)

والملاحظ في هذه الآيات من السورة الكريمة : أنّ آية واحدة منها تحدثت عن جزاء الكافرين ، وما بعد ذلك من آيات يتحدث عن جزاء المؤمنين ، وتعليل ذلك قد يكون من أنّ ظلّ السورة الكريمة هو ظلّ الرخاء الظاهر في الصورة والإيقاع ،

(١) [سورة الإنسان من الآية رقم ٤ ــ ٢٢].

وظل الهتاف المغري بالنعيم المريح (٢)(٣) ــ على حدّ تعبير الأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ.

قلت : وقد يعلّل ذلك أيضـاً بـأن ختام الآية السابقة بصيغة المبالغة أعني " وإمّا كفوراً " لم يقابلها الله ــ تعالى ــ بالإسهاب في ذكر العذاب لهم ــ مع أنّ هذا هو المفترض ــ تحقيراً لشأنهم والتهوين من أمر كفرهم رغم كثرته وأنّ الالتفات الحقيقي من الله لعباده إنما هـو للمؤمنين دون الكافرين . وأيضاً للإشعار بأنّ الكريم لا يكثر من العتـاب وذكـر العقاب وإنّما شأنه أنْ يكثر من إظهـار كرمه وجوده وذكر ما أعده لأحبابه من صنوف الكـرم . والله أعلم

وقولـه ــ تعالى ــ:﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ جاء للتهديد والوعيد لمن كفر بخالق هذه النعم السابق ذكرهـا في الآيـات الكريمة جزاءً وفاقاً ، وتقديم وعيدهم وقد تأخر ذكرهم لأنّ الإنذار أهـم وأنفـع وتصدير الكلام وختمه بـذكر المـؤمنين أحسن . (٤)

(٢) [الظلال ٦ – ٣٧٨٠].
-٣-
(٤) [تفسير البيضاوي ٢ – ٥٥٢].

ومعنى " أعتدنا " أعددنا وهيأنا .

و" السلاسل " القيود ، وقالوا إنّها تكون في الأرجل . أمّا " الأغلال " فالأطواق من حديد تشد بها أيديهم إلى رقابهم .

وأمّا " السعير " فهو النار التي تسعر عليهم فتوقد فيكونون حطباً لها ، وهذا من أغلظ أنواع الترهيب والتخويف .(١)

ولعلّ النّص على هذه الأنواع من العذاب دون غيرها — في الآية الكريمة — لمناسبة حال الكفار في هذا المقام إذ إنّهم لما غلّوا هذه النعم الظاهرة والباطنة والسابق ذكرها في الآيات الكريمة (إنَّا خَلَقْنَا الإنسانَ من نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ .. الآية)

أقول : لما غلّوا هذه النعم وحبسوها عن الشكر والنظر والتفكر جوزوا بما يناسب حالهم هذا من القيود في أرجلهم وأطواق الحديد التي تشد بها أيديهم إلى رقابهم .

هذا عن جزاء الكافرين أمّا جزاء المؤمنين ففيه يقول — تعالى —:﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ من كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾

وهذا استئنافٌ بياني ناشئ عن الاستئناف الذي قبله من قوله (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا).. الخ فإنّ من عرف ما أُعد للكفور من الجزاء يتطلع إلى معرفة ما أعد للشاكرين من الثواب .

وبعبارة أخرى : شروع في بيان حسن حال الشاكرين إثر بيان سوء حال الكافرين .(٢)

وهذه الآيات ، وما بعدها إلى قوله — تعالى —:(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً)(٣) تتحدث عن الجنة وما فيها من صنوف النعيم وبعض صفات المؤمنين الذي فازوا بالدخول فيها.

ولا يملك المرء في مقام الحديث عن الجنة وما فيها سوى تفسير معاني الكلمات الواردة في شأنها بقدر الطاقة .

كيف لا ، والأمر أكبر من أي تصور بشري ؟

---

(١) [تفسير جزء تبارك ص ١١٧ ومفاتيح الغيب ١٦ – ٥٦].

(٢) [التحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٩ وروح المعاني ١٦ — ٢٦٤].

(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٢].

ولننظر إلى قوله — تعالى —:﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(١) هل يستطيع المرء تصور هذا الاشتهاء ، والالتذاذ كذلك في مكان فيه الخلود بلا نهاية ؟

وقوله — ﷺ — فيما يرويه عن ربّ العزة — سبحانه —:" أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر فاقرأوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(٢) "(٣) .

إنّ ما سنراه فيما يلي من تفسير لتلك الآيات يعدُّ تقريباً للصورة بقدر الطاقة وليس هو الصورة ذاتها .

فأقول — وبالله التوفيق —:

قوله — تعالى —:﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾(٤)

التأكيد هنا — (إِنَّ الأَبْرَارَ...) الآية — للدلالة على حصول الجزاء من الله — تعالى — وأنه لا رادّ لفضله . وهو في مقابلة التأكيد في قوله — تعالى —:(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ...) الآية . للدلالة على إيصال العذاب للكافرين ماله من دافع عنهم

و (الأبرار) هم الشاكرون أي في قوله — تعالى — (إمّا شاكراً) عبّر عنهم بالأبرار زيادة في الثناء عليهم .

والأبرار : جمع بَرّ — بفتح الباء — وجمع بارّ أيضاً مثل شاهد وأشهاد ، والبارّ أو البَرّ : المكثر من البرّ — بكسر الباء — وهو فعل الخير ، ولذلك كان (البَرُّ) من أوصاف الله — تعالى —(٥) قال — تعالى —:﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾(٦) .

(يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ) الكأس هي الزجاجة إذا كانت فيها خمر ، وتطلق الكأس على نفس الخمر أيضاً .. والمعنى يشربون من خمر ، وعبّر عنها بالكأس مجازاً بعلاقة المجاورة أو على سبيل التشبيه

---

(١) [سورة الزخرف آية رقم : ٧١].

(٢) [سورة السجدة آية رقم : ١٧].

(٣) [رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة رقم : ٣٢٤٤ ، ورواه مسلم في كتاب صفة الجنة والنار ، باب صفة الجنة رقم : ٦٩٩٤].

(٤) [سورة الإنسان آية رقم : ٥].

(٥) [وصف (بَرّ) أقوى من (بارّ) في الاتصاف بالبرّ ، ولذلك يقال : الله بَرّ ولم يقل : الله بار . ويجمع (بَرّ) على (بررة) وفي مفردات الراغب أنْ :(بررة) أبلغ من (أبرار) . ينظر : التحرير والتنوير ١٤ – ٣٧٩ ، ومفردات ص ٣٨].

(٦) [سورة الطور آية رقم : ٢٨].

مبالغة في جعل الخمر هي الكأس على حدّ قول الشاعر:

رقّ الزجاج وراقت الخمر
فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنّما خمر ولا قدح
وكأنّما قدح ولا خمر (١)

فـ " من " على معنى يشربون من كأس أي من زجاجة فيها خمر: " ابتدائية ".

وعلى معنى يشربون من كأس أي يشربون من خمر: " تبعيضية أو بيانية "(٢)

(كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً) جيء بـ " كان " هنا لتحقيق الدوام ، إذ كان معتاد الناس في الدنيا ندرة ذلك المزاج لغلاء ثمنه وقلة وجدانه .

والمزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به فهو اسم آلة (٣)

والكافور : نبات لـه نور أبيض كنور الأقحوان طيب الـريح (٤)

ومعناه في الآية الكريمة :" كان مزاجها كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبَرْده . لأنّ الكافور لا يشرب .

أو كافوراً : اسم عين في الجنة - ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبَرْده .

والكلام على حذف مضاف أي " ماء كافور " وجملة " كان مزاجها كافوراً " صفة لـ " كأس "(٥)

ولمّا ذكر – تعالى – أنّ الأبرار يشربون شراباً هذه صفته – عاد فمدحه بقوله :﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾(٦)

نُصب " عيناً " على الاختصاص بالمدح . وتعرب أيضاً على أنها بدل من " كافورا " إنْ جعل اسم ماء ، أو بدل من

---

(١) [البيتان للصاحب بن عباد . ينظر : يتيمة الدهر للثعالبي ١ ـــ ٤٠٦].

(٢) [ينظر : إرشاد العقل السليم ٩ – ٧١]

(٣) [ينظر : روح المعاني ١٦ – ٣٨١ والتحرير والتنوير ١٤ – ٣٨١ . وفي المصباح المنير " مزجت الشيء بالماء مزجاً ـــ من باب قتل ـــ خلطه وقالوا للعسل مَزْجُ لأنه يخلط بالشراب، ومزاج الجسد ـــ بالكسر ـــ طبائعه التي يتألف منها : ومزاج الخمر كافور يعني يخلط بها [illegible]

، والجمع أمزجة مثل سلاح وأسلحة "[المصباح المنير ٢ – ٥٧٠].

(٤) [لسان ٥ – ١٥٠].

(٥) [الجامع لأحكام القرآن ١٠ـــ ٦٩١٦ ، ومعاني القرآن للفراء ٣ ـــ ٢١٥ ط / دار السرور وجامع البيان ٢٩ ـــ ٢٠٧ ، وزاد المسير ٨ ـــ ٤٣٠ ، وإرشاد العقل السليم ٩ – ٧١]

(٦) [سورة الإنسان آية رقم ٦].

محل " من كأس " على تقدير مضاف ، أي مـاء عين أو خمرها . (١)

وجملة (يشرب بها عباد الله) وقعت صفة لـ(عيناً) أي يشربون بها الخمر لكونها ممزوجة بها .

وقيل : ضمن " يشرب " معنى يلتذ أي يلتذ بها عباد الله .

وقيل :(الباء) بمعنى (مـن) أي " يشرب منها عباد الله ".

وقيل : الباء زائدة ، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة " يشربها عباد الله "(٢)

وقيل : الضمير للكأس والمعنى يشربون العين بتلك الكأس .

(يفجرونها تفجيراً) أي يجرونها حيثما شاؤا من منازلهم إجراءً سهلاً لا يمتنع عليهم بل يجرى جرياً بقوة واندفاع . والجملة صفة أخرى لـ "عيناً ".

ولا يخفى الترقي في وصف الذين اختاروا طريق الهدى فإنه ذكر أولاً أنهم شاكرون (إمّا شاكراً) ثم عَبّر عنهم ثانياً بالأبرار (إنّ الأبرارَ يشربونَ من كأسٍ) ثم عَبّرَ عنهم ثالثاً بأنهم عباد الله (عيناً يشربُ بها عباد الله) وذلك إيناساً وتكريماً وإعلاناً للفضل تارة ، وللقرب من الله تارة في معرض النعيم والتكريم . (٣)

وفي سياق ذكر هذا النعيم الأبدي لعباد الله قد يثور في نفس السامع المغتبط سؤال مؤداه : بمَ استحق هؤلاء ما رزقوه؟ فأجيب :﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً... ﴾(٤) الخ

فالآية إذاً استئنافٌ مسوق لبيان ما لأجله يرزقون هذا النعيم ..

ولا يخفى أنّ الكلام إخبار عنهم صادر وقت نزول هذه الآيات بعضه وصف لحالهم في الآخرة (إن الأبرار يشربون من كأس ..) وبعضه (أي (يوفون بالنذر ..) الخ وصف لبعض حالهم في الدنيا الجالب لنوال ما نالوه في الآخرة فلا حاجة إذاً للقول بأنّ في الكلام إضماراً تقديره (كانوا يوفون بالنذر).

وقوله ـــ تعالى ـــ :(يوفون بالنذر)

الوفاء : أداء ما وجب على المؤدي وافياً دون نقص ولا تقصير فيه .

---

(١) [تفسير جزء تبارك ص ١١٧ ، وتفسير الإمام البيضاوي ٢ – ٥٥٢].

(٢) [ينظر : فتح القدير ٥ ـــ ٣٤٧].

(٣) [ينظر : الظلال ٦ – ٣٧٨١].

(٤) [سورة الإنسان آية رقم : ٧].

والنذر : ما يعتزمه المرء ويعقد عليه نيته .

ومعنى إيفاء النذر في الآية :

إمّا كناية عن كل ما وجب على الإنسان سواء وجب بإيجاب الله ــ تعالى ــ ابتداءً ، أو بأن أوجبه المكلّف على نفسه فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات.

وإمّا المراد هو المعنى الظاهر من لفظ النذر أي ما يعتزمه المرء ويعقد عليه نيته ، وصورته في عرف الشرع بأنْ يقول : لله عليَّ كذا وكذا من الصدقة ، أو يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله ــ تعالى ــ مثل أنْ يقول : إنْ شفى الله مريضي فعليَّ كذا.

فمعنى إيفاء النذر على هذا : إذا نذروا طاعة فعلوها . وهذا أولى بتفسير الآية فإنّ من وفّى بما أوجبه هو على نفسه كان بما أوجبه الله عليه أوفى .[1]

ثم عطف الله ــ تعالى ــ على " يوفون بالنذر " قوله (وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً) لأنهم لما وُصفوا بالعمل بما ينذرونه أتبع ذلك بذكر حسن نيتهم ، وتحقق إخلاصهم في أعمالهم ، لأنّ الأعمالَ بالنيات فجمعٌ لهم بهذا صحةَ الاعتقاد وحسن الأعمال .

وخوفهم اليوم مجازٌ عقلي جرى في تعلق اليوم بالخوف لأنّهم إنّما يخافون ما يجري في ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيئة بالعقاب فعلق فعل الخوف بزمان الأشياء المخوفة ..

ووصف اليوم بأنّ له شراً مستطيراً وصفاً مشعراً بعلة خوفهم إياه.

فالمعنى : أنهم يخافون شرَّ ذلك اليوم فيتجنبون ما يُفضي بهم إلى شرِّهِ من الأعمال المتوعد عليها بالعقاب .[2]

(وشرّه) أي عذابه (مستطيراً) فاشياً منتشراً في الأقطار غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر .. وهو في اللغة " ممتداً " والعرب تقول : استطار الصُّدْع في القارورة والزجاجة واستطال إذا امتدَّ..

والتعبير بـ " استطار " أبلغ من " طار" لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى وللطلب أيضاً دلالة على ذلك لأنّ ما يطلب من شأنه أن يبالغ فيه

(١) [روح المعاني ١٦ – ٢٦٦ ، وإرشاد العقل السليم ٩ – ٧٢ ، والبحر المحيط ٨ – ٣٨٨ ، والتحرير والتنوير ١٤ ــ ٣٨٢ ، ومعاني القرآن للفراء ٢١٦ ، والجامع لأحكام القرآن ١٠ــ ٦٩١٨ ، ومفاتيح الغيب ١٦٠ ــ ٥٩].

(٢) [التحرير والتنوير ١٤ ــ ٣٨٣].

وقال :(كان شره مستطيراً) ولم يقل :" سيكون شره مستطيراً " للدلالة على تمكن الخبر من المخبر عنه كقوله ــ تعالى ــ (وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً)[1]

ويحتمل أن يكون المراد أنه كان شره مستطيراً في علم الله وفي حكمته ، كأنّه ــ تعالى ــ يقول : إيصال هذا الضرر إنّما كان لأنّ الحكمة تقتضيه ، وذلك لأنّ نظام العالم لا يحصل إلا بالوعد والوعيد ، وهما يستلزمان الوفاء به ، لاستحالة الكذب في كلامي ، فكأنّه ــ تعالى ــ يقول : كان ذلك في الحكمة لازماً ، فلهذا السبب فعلته .

وعلى كلٍّ : فوصفهم بذلك إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي .

يدلّ عليه أيضاً التعبير بصيغة المضارع " يخافون " التي تدل على تجدد خوفهم شرّ ذلك اليوم على نحو قوله " يوفون بالنذر "[2].

ثم ذكر ــ تعالى ــ من خلائق أولئك الأبرار أيضاً العناية بضعفاء البشر ومواساتهم ، والاجتهاد في إيصال كل خير إليهم ، ودفع كل ضر عنهم فقال ــ تعالى ــ:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾[3]

وعلى طريقة السؤال والجواب نقول: لِمَ خصَّ الإطعام من بين مظاهر العطاء جميعاً وما معنى(على حبه) ومن هو المسكين واليتيم والأسير ؟ وإذا كانت السورة مكية كما سبق بيانه فعلام يفسر معنى (أسيراً) في الآية ولم يكن هناك أسرى في مكة ؟ وهل الآيات لها سبب نزول ، وإذا كان فما وجه صحته ؟ وهل من اللائق بحال الأبرار أن يذكروا وجه إطعامهم لهؤلاء .. فيقولوا :(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) ؟ وما معنى الجزاء والشكور ؟ وما وجه المفارقة بين ذكر خوفهم من يوم القيامة (وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً) ، وبين ذكر

(١) [سورة الأحزاب آية رقم : ١٥].

(٢) [ينظر : روح المعاني ١٦ ــ ٢٦٦ ، والتحرير والتنوير ١٤ – ٣٨٣ ، والجامع لأحكام القرآن ١٠ ــ ٦٩١٩ ، ومفاتيح الغيب ١٦ ــ ٦١ ، ومعاني القرآن ص ٢١٦].

(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ٨ ــ ١٠].

خوفهم من ربهم ومن يوم القيامة (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) ؟ وما معنى عبوساً وقمطريراً ؟

هذه الأسئلة وتلكم الإجابة :

أمَّا لماذا خصَّ الإطعام من بين مظاهر العطاء جميعاً ، فلما في إطعام المحتاج من إيثاره على النفس . أوْ لأنَّ الإطعام هنا كناية عن وجوه الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأيِّ وجه كان .

ووجه ذلك أنَّ أشرف أنواع الإحسان هو الإحسان بالطعام وذلك لأنَّ قوام الأبدان بالطعام ولا حياة إلا به ، وقد يتوهم إمكان الحياة مع فقد ما سواه

و (على حبه) في موضع الحال من ضمير " يطعمون " أي كائنين على حب الطعام والحاجة إليه كما في قوله ـ تعالى ـ (لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [1])

أو المعنى : كائنين على حب الإطعام بأن يكون ذلك بطيب النفس .

أو إطعاماً كائناً على حبه ـ تعالى ـ وهو الأنسب لقوله ـ تعالى ـ (لوجه الله).

والمسكين : هو العاجز عن الاكتساب ، وقيل هو الذي لا شئ له، وهو أبلغ من الفقير .

وقوله ـ تعالى ـ:(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) [2] .

فإنَّه جعلهم مساكين بعد ذهاب السفينة ، أو لأنَّ سفينتهم غير معتد بها في جنب ما كان لهم من المسكنة .

واليتيم : فاقد الأب وهو مظنة الحاجة لأنَّ أحوالَ العرب كانت قائمة على اكتساب الأب للعائلة بكدحه ، فإذا فقد الأب تعرضت العائلة للخصاصة .

والأسير : هو المأخوذ من قوم المملوكة رقبته الذي لا يملك لنفسه نصراً، ولا حيلة والأصل في الأسر هو الشدّ بالقيد . وكان الأسير يُفعل به ذلك حبساً له ، ثم سمي بالأسير مَنْ شُدَّ ومن لم يشدّ فعاد المعنى إلى الحبس .

وذكر الإمام الرازي أنَّ معناه في الآية مختلف فيه على خمسة أوجه :

أولاً : قيل هو الأسير من المشركين وعلى هذا القول تكون الآية مدنية إذ لم يكن للمسلمين أسرى في مكة وإنما كان ذلك في المدينة .

ثانياً : الأسير هو المملوك .

ثالثاً : الأسير هو الغريم .

---

(١) [سورة آل عمران آية رقم : ٩٢].

(٢) [سورة الكهف آية رقم : ٧٩].

رابعاً : الأسير هو المسجون من أهل القبلة .

خامساً : الأسير هو الزوجة لأنهنّ أسراء عند الأزواج . [1]

قلت : وهذه معان يحتملها لفظ الأسر الذي هو بمعنى الحبس إلا أنَّ القول الأول لا دليل عليه لما سبق من أنَّ الراجح هو أنَّ سورة الإنسان مكية ولم يكن في مكة أسرى من المشركين لدى المسلمين .

والقول الثاني أوْلى بتفسير الآية وهو أنَّ الأسير : العبد من المسلمين إذ كان المشركون قد أجاعوا عبيدهم الذين أسلموا مثل بلال وعمار وأمه ـ ﷺ ـ ، وربما سيَّبوا بعضهم إذا أضجرهم تعذيبهم وتركوهم بلا نفقة ، والعبودية تنشأ من الأسر فالعبد أسير ، ولذلك يقال له " العاني " أيضاً قال النبي ـ ﷺ ـ:" فكّوا العاني " [2]

وقال عن النساء " إنَّهن عوان عندكم "[3] على طريق التشبيه[4] ومنْ ثمَّ يكون القول الخامس قريباً إلى المعنى المراد أيضاً يدلّ عليه أنَّ أفضل ما يعطى للأسير هو فكّ أسره والآية إنما ذكرت الإطعام في الأصناف الثلاثة فدلَّ على أنَّ هذا الأسير كائن في أسره وإنما الممدوح إطعامه .

والآية بلفظها ومعناها مدح للأبرار وإظهار صفاتهم ودلالة على أبواب الخير والحثّ على فعله دون تخصيص بعينه .

ولكن هل لهذه الآية سبب نزول تخص به وما وجه صحته ؟

وللإجابة على هذا أقول :

أولاً : ما ذكره غير واحد من المفسرين [5] سبباً لنزول هذه الآيات لم يصح فضلاً عن حمل الآية عليه .

وملخصه : أنَّ الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ مرضا فنذر عليٌّ وفاطمةُ ـ رضى الله عنهما ـ ، وجاريةُ

---

(١) [مفاتيح الغيب ١٦ ـ ٦٥ ، وإرشاد العقل السليم ٩ ـ ٧٢ ، والتحرير والتنوير ١٤ ـ ٣٤٨ ، ومفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٤٣].

(٢) [رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير ٢٨٨١].

(٣) [رواه الترمذي كتاب الرضاع ، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها رقم : ١١٦٣ قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح].

(٤) [ينظر : التحرير والتنوير ١٤ ـ ٣٨٥].

(٥) [ذكر منهم الإمامُ القرطبيُ (١٠ - ٦٩٢١) النقاشَ والثعلبيَ والقشيريَ .. وغيرهم].

لهما إنْ شفاهما الله أن يصوموا ثلاثة أيام ، فشفيا بإذن الله ثم صام عليٌّ وفاطمةُ والجارية ، وعند إفطارهم في اليوم الأول جاء مسكين فأطعموه ما أعدوه من طعام، وفي اليوم الثاني جاء يتيم فأطعموه كذلك، وفي اليوم الأخير جاء أسير فأطعموه كذلك ، فنزلت :" هل أتى على الإنسان .." إلى قوله ــ تعالى ــ :(لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً)..

قال الترمذي الحكيم ــ بعد ذكر هذه القصة في كلام يطول ذكره .. " ملخصه "ــ:" هذا حديث مُزوّق مُزيّف قد تطرّف فيه صاحبه حتى تشبه على المستمعين والجاهل يعض على شفتيه تلهفاً ألاّ يكون بهذه الصفة ولا يدري أنّ صاحب هذا الفعل مذموم قال الله ــ تعالى ــ في تنزيله الكريم (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ[1]) وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك.."هـ[2]

قلت : ولا حاجة لإلصاق هذه الآثار الباطلة بآل بيت رسول الله ــ ﷺ ــ لأنهم على رأس الأبرار والأخيار .

---

(١) [سورة البقرة آية رقم : ٢١٩].

(٢) [نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ١ ــ ٣٦٨ الأصل الرابع والأربعون].

ثانياً : أنّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ونعود إلى استكمال الإجابة عما سبق السؤال عنه فنقول : هل من اللائق بحال الأبرار أن يذكروا وجه إطعامهم لهؤلاء ؟

والإجابة : ليس ذلك من قول أولئك الأبرار .. بل ليس من المادح أنْ يخاطبوا به هؤلاء المساكين المتحلقين حول موائدهم ، وإنما هو مما قاله الوحي عنهم مشيراً إلى أنّ حالهم ناطقة بذلك .. وقال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوا ذلك بألسنتهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنى عليهم ليرغب في ذلك راغب .[3]

وقد يحتمل أنّ هؤلاء الأبرار قد قالوا هذه الأشياء باللسان ، إمّا لأجل أن يكون ذلك القول منعاً لأولئك المحتاجين عن المجازاة بمثله أو الشكر ، لأنّ إحسانهم مفعول لأجل الله ــ تعالى ــ فلا معنى لمكافأة الخلق .

وإمّا أنْ يكون لأجل أنْ يصير ذلك القول تفقيهاً وتنبيهاً على ما ينبغي أن

---

(٣) [جامع البيان ٢٩ ــ ٢١١ ، وينظر : تفسير جزء تبارك ص ١١٩].

يكون عليه من أخلص لله حتى يقتدي غيرهم بهم في تلك الطريقة ..

وعلى كلٍّ فالجملة في موقع الحال من فاعل يطعمون أي قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال إزاحة لتوهم المنّ المبطل للصدقة وتوقع المكافأة الناقصة للأجر .

ومعنى (لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) المراد بالجزاء : ما هو عوض عن العطية من خدمة وإعانة أي لا نريد منكم جزاءً بالأفعال " ولا شكوراً " ولا شكراً وثناءً بالأقوال ، والجملة تأكيد وتقرير لما قبله .[1]

ووجه المفارقة بين ذكر خوفهم من يوم القيامة في قوله :(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً) وبين ذكر خوفهم من ربهم ومن يوم القيامة (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) يوضحه الإمام الرازي فيقول :" الإيفاء بالنذر دخلَ في حقيقة طلب رضاء الله ــ تعالى ــ، وذلك لأنّ النذر هو الذي أوجبه الإنسان على نفسه لأجل الله فلمّا كان كذلك لا جرم ضم إليه خوف القيامة فقط ، أمّا الإطعام ، فإنه لا يدخل في حقيقة طلب رضا الله ، فلا جرم ضم إليه طلب رضا الله وطلب الحذر من خوف القيامة "هـ[2]

أما معنى " عبوساً قمطريراً " في الآية (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) فالجمهور جعلوا " قمطريراً " وصفاً لـ" يوماً " ومنهم من جعلوه " وصفاً " لـ " عبوساً " أي شديد العبوس " والمعنى (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا) عذاب يوم (عبوساً) يعبس فيه الوجوه أو يُشبه الأسدَ العبوس في الشدة والضراوة (قمطريراً) شديد العبوس ويفسر القمطرير أيضاً بالطويل فوصف اليوم " بالعبوس " مجاز على طريقين .

أحدهما : أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم " نهارك صائم " ..

والثاني : أن يشبه في شدته وضراوته بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل.[3]

---

(١) [ينظر : مفاتيح الغيب ١٦ ــ ٦٦ ، وإرشاد العقل السليم ٩ – ٧٢ ، وروح المعاني ١٦ – ٢٦٨].

(٢) [مفاتيح ١٦ ــ ٦٧].

(٣) [ينظر : التحرير والتنوير ١٤ – ٣٨٧ ، وروح المعاني ١٦ – ٢٦٨ ، ومفاتيح الغيب ١٦ ــ ٦٧ ، وإرشاد العقل السليم ٩ – ٧٢ ، والمحرر الوجيز ٥ ــ ٤١١ ، والكشاف ٤ – ١٩٦].

ولمّا كان هذا حال الأبرار مع الله — تعالى — يتلخص في الخوف منه ، والرجاء فيه وعمل صالح يرضيه — وإخلاص في العمل من النفاق والرياء يصفيه قال — تعالى — ذاكراً إحسانه إليهم على طريقة قوله (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (١)):

﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ (٢)

هذه الآيات تفريع على قوله (يوفون بالنذر) إلى (قمطريراً) وفي هذا التفريع تلوين للحديث عن جزاء الأبرار وأهل الشكور .

ففيها تعجيل بذكر وقايتهم من شرّ ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه ، ليطمئنهم في الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ، ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسروراً لا يوماً عبوساً قمطريراً ، جزاء وفاقاً على خشيتهم وخوفهم ، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .

ونعيش مع كلمات وجمل هذه الآيات والتي تصف ألواناً متعددة من النعيم الذي أعده الله — تعالى — لهؤلاء الأبرار .

قوله — تعالى — : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾

هذا من باب التجانس البليغ (٣)

ومعنى " فوقاهم " أي دفع عنهم (شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ) أي بأسه وشدته وعذابه (وَلَقَّاهُمْ) أي أعطاهم – بدلاً من عبوس الفجار وحزنهم – نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب .

ولا يخفى ما في قوله (وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً) من البلاغة إذ معناه :

(١) [سورة الرحمن آية رقم : ٦٠].

(٢) [سورة الإنسان آية رقم : ١١ — ١٤].

(٣) [الجناس : مصدر جانس ويسمى التجنيس والمجانسة والتجانس ، ومعناه في مصطلح علماء البيان هو أن يتفق اللفظتان في وجه من الوجوه ويختلف معناهما...(ينظر شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان ص : ١٤٣ / للإمام السيوطي – ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م ، والإكسير في علم التفسير — ٣٣٢ — ٣٣٤ للإمام / الطوفي – مكتبة الآداب – القاهرة ت د / عبد القادر حسين ، والطراز ص : ٣٧٢ للعلوي – ط دار الكتب العلمية بيروت – الأولى ١٤١٥ هـ — ١٩٩٥م].

جعلهم يَلْقَون نضرة وسروراً ، أي جعل لهم نضرة وهي حسن البشرة ، وذلك يحصل من فرح النفس ورفاهية العيش قال — تعالى — (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (١)) فمُثّل إلقاء النضرة على وجوههم بزج أحد إلى لقاء أحد على طريقة التمثيل (٢).

ثم عطف الله — تعالى — على جملة (فوقاهم) وجملة (ولقاهم) قوله : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ (٣)

حيث ذكر شيئاً آخر من صفاتهم وجعله مناط جزاءهم وهو الصبر ، إذ هو الجامع لأحوال التقوى والعمل الصالح كلّه لأنّ جميعهُ لا يخلو عن تحمل النفس لترك محبوب أو فعل ما فيه كلفة ، ومن ذلك إطعام الطعام على حبه .

وقوله (جنة وحريراً) أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرم الله فيها .

(١) [سورة القيامة آية رقم : ٢٢].

(٢) [التحرير والتنوير ١٤ — ٣٨٨ والجامع لأحكام القرآن ١٠ – ٢٩٢٧ ، وتفسير ابن كثير ٤ — ٤٥٥].

(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ١٢].

فجمع لهم في هاتين الكلمتين حسن الظرف الخارج وحسن الظرف المباشر وهو اللباس (٤).

هذا ما ذكره — تعالى — جزاءً للأبرار " الجنة سكنى لهم والحرير لباس لهم " ولكن ما حالهم فيها ؟ هذا ما ذكره — تعالى — بعد ذلك فقال :

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ (٥)

فقوله " متكئين " حال من ضمير الجمع في " جزاهم " أي هم في الجنة متكئون على الأرائك

والاتكاء : جلسة بين الجلوس والاضطجاع ، يستند فيها الجالس على مرفقه وجنبه ويمد رجليه وهي جلسة ارتياح ، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ ، ولهذا قال النبي — ﷺ — : " إني لا آكل متكئا " (٦)

والأرائك : جمع أريكة بوزن سفينة . والأريكة : سرير عليه وسادة معها ستر وهو حَجَلتُه ، والحجلة – بفتحتين

(٤) [التحرير والتنوير ١٤ — ٣٨٨ ، والجامع لأحكام القرآن ١٠ – ٢٩٢٧].

(٥) [سورة الإنسان آية رقم : ١٣].

(٦) [رواه البخاري كتاب الأطعمة ، باب الأكل متكئا رقم : ٥٣٩٨].

وبتقديم الحاء المهملة على الجيم – كلّه[١] تنصب فوق السرير لتقي الحر والشمس، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه حجلة .

وقيل : ما يتوسد ويفترش مما له حشو يسمى أريكة وإن لم تكن له حجلة

وجملة (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) حال ثانية من ضمير الغائب في " جزاهم " أو صفة " جنة "

والمعنى : أنه يمرّ عليهم فيها هواء معتدل لا حارّ محمّ ولا بارد مؤذ . فالزمهرير : اسم للبرْد القوى .

وقيل : الزمهرير : القمر في لغة طيئ قال راجزهم : وليلة ظلامها قد اعتكَر

قطعتُها والزَّمْهرير ما زَهَرْ

والمعنى هنا : أنّ نهارها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس وقمر .[٢]

ويفيض الله – جلّ ذكره – من ذكر أحوال الأبرار في الجنة إظهاراً لعظيم كرمه وسعة ملكه وطلاقة قدرته فيقول: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾[٣]

قوله :(ودانيةً) بالنصب حال عطف على قوله – تعالى –(متكئين) كما تقول : في الدار عبد الله متكئاً ومرسلة عليه الحجال ، لأنه حيث قال " عليهم " رجع إلى ذكرهم .

أو حال عطف على محل (لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيرا) والتقدير : غير رائين فيها شمساً ولا زمهريراً (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا).

ودخلت الواو للدلالة على أنّ الأمرين يجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم جنةً جامعين فيها بين البعد عن الحر والبرد ، ودنوا الظلال عليهم .

أو تكون " دانيةً " صفة للجنة .

والمعنى : وجزاهم جنةً دانيةً ، وعلى هذا الجواب تكون " دانيةً " صفة لموصوف محذوف ، كأنه قيل : وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً وجنةً أخرى دانيةً عليهم ظلالها ، وذلك لأنهم وعدوا جنتين ، وذلك لأنهم خافوا بدليل قوله – تعالى –:(إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا) وكلّ من خاف

(١) [الكِلّة : غشاء من ثوب رقيق يتوقى به من البعوض . [لسان ١١ – ٥٩٥].

(٢) [ينظر : التحرير والتنوير ٤ – ٣٨٩ ، وتفسير البيضاوى ٢ – ٥٥٣ والبيت في شواهد الكشاف (٤ – ٤٢٥) بدون نسبة . ولفظ (زهر) في البيت روي بلفظ (ظهر) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب ١ – ٨ لـ / أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ، شهاب الدين النويري].

(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ١٤].

فله جنتان ، بدليل قوله (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ[١])

وقرئ " ودانيةٌ " بالرفع[٢] على أنّ ظلالها مبتدأ ودانية خبر والجملة في موضع الحال . والمعنى : لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، والحال أنّ ظلالَها دانية عليهم .

ودنو الظلال : قربها منهم وإذْ لم يعهد وصف الظل بالقرب يظهر أنّ دنوّ الظلال كناية عن تدلّي الأدواح التي من شأنها أن تظلل الجنات في معتاد الدنيا ، ولكنّ الجنة لا شمس فيها فيستظل من حرّها ، فتعين أنّ تركيب (دانيةً عليهم ظلالها) مَثَل يطلق على أفنان الجنة لأنّ الظل المظلل للشخص لا يتفاوت بدنوّ ولا بعد ، وقد يكون " ظلالُها " مجازاً مرسلاً عن الأفنان بعلاقة اللزوم .

والمعنى : أنّ أدواح الجنة قريبة من مجالسهم ، وذلك مما يزيدها بهجة وحسناً وهو في معنى قوله – تعالى –:(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ[٣]) وقوله : (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً)

(١)[سورة الرحمن آية رقم : ٤٦].

(٢) [عزاها أبو حيّان في البحر (٨ – ٣٨٨) لأبي حيوة . وهي قراءة شاذة].

(٣) [سورة الحاقة آية رقم : ٢٣].

إنْ رفعت " ودانية " تكون جملة " وذلّلت " جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية .

وإنْ نصبت " ودانية " على الحال فهي الأخرى حال من " دانية " أي تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها لهم .

أو معطوفة عليها على معنى " ودانية عليهم ظلالها ومذللة قطوفها .

وإن نصبت " ودانية " على الوصف فهي صفة مثلها : ألا ترى أنك لو قلت : جنة ذللت قطوفها ، كان صحيحاً .

ومعنى تذليل القطوف : أي سخرت لهم قطوفٌ – جمع قِطف – بكسر القاف وسكون الطاء – ، وهو العنقود من التمر أو العنب – تلك الأدواح أو الظلال وسهلت لهم بحيث لا التواء فيها ولا صلابة تتعب قاطفها ولا يتمطّون إليها بل يجتنونها بأسهل تناول .

فاستعير التذليل للتيسير كما يقال : فرس ذلول أي مطواع لراكبه " وتذليلاً " مصدر مؤكّد لذلك ، أي تذليلاً شديداً منتهياً .[٤]

(٤) [ينظر : مفاتيح الغيب ١٦ – ٦٩ ، ٧٠ والكشاف ٤ – ١٩٧ – ١٩٨ والتحرير والتنوير ١٤ – ٣٩٠].

ثم عُطف على جملة (يشربون من كأس (١)) .. إلى آخره ، قوله — تعالى —:﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ (٢)

التناسب بين جملة " يشربون من كأس " وجملة " ويطاف عليهم " في الفعلية والمضارعية من أحسن أحوال الوصل ، وبذلك يعود الكلام إلى صفة مجالس شرابهم .

وهذا القول أولى من قول البعض : " إنه — تعالى — لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف بعد ذلك شرابهم ".

قلت : قد سبق ذكر شرابهم فالأولى أن تكون هذه الجملة (ويطاف عليهم) بيان لما أجمل في جملة (إن الأبرار يشربون من كأس) ، وإنما عطفت عليها لما فيها من مغايرة مع الجملة المعطوفة عليها من صفة آنية الشراب ، فلهذه المناسبة أعقب ذكر مجالس أهل الجنة ومتكآتهم ، بذكر ما يستتبعه مما تعارفه أهل الدنيا من أحوال أهل البذخ والترف واللذات بشرب الخمر إذ يُدير عليهم آنية الخمر سقاة .

وإذ قد كان ذلك معروفاً لم تكن حاجة إلى ذكر فاعل الطواف فبنى للنائب و " الآنية " جمع إناء وهو وعاء الماء (وأكواب) جمع كُوب — بضم الكاف بعده واو ساكنة — .

والكوب : كوز لا عروة له ولا خرطوم — وهي — أي الأكواب — في الآية الكريمة مخلوقة من فضة .

(كَانَتْ قَوَارِيرَا) " كان " تامة أي كونت فكانت قوارير بتكوين الله ، والجملة " صفة لـ (أكْوَاب) .

(والقوارير) جمع قارورة وهو اسم للإناء من الزجاج ، ومعنى (قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ) أي مخلوقة من فضة فهي جامعة لبياض الفضة وحسنها ، وصفاء القوارير وشفيفها حيث يرى ما فيها من الشراب من خارجها (٣) .

وقرأ نافع والكسائي وعاصم (في رواية أبي بكر) بالتنوين فيهما أي (كانت قواريراً * قواريراً من فضة)

(١) [سورة الإنسان آية رقم : ٥].
(٢) [سورة الإنسان آية رقم : ١٥ ، ١٦].
(٣) [ينظر : مفاتيح الغيب ١٦— ٧٠ والتحرير والتنوير ١٤ — ٣٩١ ومدارك التنزيل ٢ — ٧٥٨].

وإذا وقفوا وقفوا عليهما بألف اتباعاً للمصحف .

وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وحفص بغير تنوين فيهما (١) .

وإذا وقفوا وقفوا على الأولى بالألف لأنها رأس آية . ووقفوا على الثانية بغير ألف لأنها ليست رأس آية .

ووقف حمزة بغير ألف فيهما .

وقرأ ابن كثير بتنوين الأول دون الثاني وهو الاختيار لأن الأولى رأس آية وليست الثانية كذلك (٢) .

وقوله (قدّروها تقديراً) صفة لـ(قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ) أي أهل الجنة قدّروها على أشكال مخصوصة فجاءت كما قدّروها تكرمة لهم ، أو السقاة جعلوها على قدر ريّ شاربها فهي ألذ لهم وأخف عليهم . وعن مجاهد : لا تفيض ولا تغيض (٣) .

ولما كان هذا وصفاً لهذه الآنية التي يشربون فيها ناسب أن يذكر شراباً آخر يكون بها تكريماً منه — سبحانه — لعباده الأبرار وعدم الاكتفاء بشراب واحد وهو ما سبق في قوله (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) تنبيهاً على تنوع الشراب إذ هو مرة شراب ممزوج بالكافور ومرة ممزوج بالزنجبيل .

فقال — تعالى —:﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ (٤)

يجري في هاتين الآيتين معظم ما جرى في قوله — تعالى — (يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) .. الخ — من الأوجه .

(١) [قال ابن خالويه في كتاب الحجة : " الحجة لمن قرأهما بالتنوين : أنه نوّن الأولى ، لأنها رأس آية ، وكتابتها في السواد بالألف وأتبعها الثانية لفظاً لقربها منها وكراهية للمخالفة بينهما ، وهما " سيّان " كما قال الكسائي :﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (هود ٦٨) فصرف الثاني لقربه من الأول . والحجة لمن ترك التنوين : أنه أتى بمحض قياس العربية ، لأنه على وزن (فواعيل). وهذا الوزن نهاية الجمع المخالف لبناء الواحد ، فهذا ثقْل ، وهو مع ذلك جمع والجمع فيه ثقْل ثان ، فلما اجتمع فيه ثقلان منعاه من الصرف .[الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٢٣٥ دار الكتب العلمية ، وينظر : كتاب السبعة في القراءات (لابن مجاهد) ص ٦٦٣ دار المعارف].
(٢) [حجة القراءات لابن زنجلة ص ٧٣٨ مؤسسة الرسالة].
(٣) [مدارك التنزيل ٢ — ٧٥٨ ، ٧٥٩ وجامع البيان ١٢ — ١٣٤].
(٤) [سورة الإنسان آية رقم : ١٧ ، ١٨].

ويبقى معرفة وجه ذكر (يُسْقَوْنَ) هنا دون ذكر (يشربون) كسابقه . ومعنى (زنجبيلاً) و (سلسبيلاً).

أمَّا أنَّه ــ تعالى ــ ذكر هنا (يسقون) ولم يقل (يشربون) كسابقه فلعلَّ ذلك لأنَّ " يسقون " أنسب بما تقدمه من قوله (يطاف عليهم).

وبمعنى آخر أنَّ ذلك إشارة إلى تنوع سقياهم في الجنة حسب أحوالهم فيها .. فإذا أرادوا المشي فيها كانت الأنهار والعيون في متناول أيديهم وهذا يناسب يشربون وإن جلسوا على الأرائك زيد في البسطة لهم طواف السقاة عليهم بالشراب يسقونهم .

وقد يكون وجه المغايرة إشارة إلى أنهم يتناولون الكأسين في وقت واحد هذا مزاجه الكافور وهذا مزاجه الزنجبيل .

أو أنَّ في " يسقون " رَمْز إلى أنَّ هذه الكؤوس أعلى شأناً من الكأس الأولى "[1] والله أعلم .

وقوله (كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً) أي تكون خمر الجنة ممزوجة بالزنجبيل لطيب رائحته وحسن طعمه .

والزنجبيل : كلمة مُعرّبة وأصلها بالكاف الأعجمية عوض الجيم .

وهو اسم لجذور تكون في الأرض كالجزر الدقيق واللفت الدقيق لونها إلى البياض لها نبات له زهر ، وهي ذات رائحة عطرية طيبة وطعمها شبيه بطعم الفُلفل ..

ومعنى كون الزنجبيل عيناً : أنَّ منقوعه أو الشراب المستخرج منه كثير كالعين على نحو قوله ــ تعالى ــ (وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ [2]) أي هو كثير جداً وكان يعرف في الدنيا بالعزة .

وانتصب (عيناً) على البدل من (زنجبيلاً) كما تقدم في قوله ــ تعالى ــ (كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ)

أو بدل من " كأس " على معنى " تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه أو يخلق الله طعمه فيها . أو تكون " عيناً " منصوبة على الاختصاص .

و" سلسبيلاً " إمَّا أنْ تكون وصفاً لهذه العين مشتقاً من السلاسة وهي السهولة واللين فيقال : ماء سلسل ، أي عذب بارد .

---

(١) [روح المعاني ١٦ – ٢٧٥] بتصرف

(٢) [سورة محمد آية رقم : ١٥].

وفي الكشاف : زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة . قال الزجاج : السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة .

والمعنى : أنَّ تلك العين وصفت بـ " سلسبيلاً " لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها ، يعنى أنَّها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعة ، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة .[1]

فمعنى : (تسمى) على هذا الوجه ، أنها توصف بهذا الوصف حتى صار كالعلم لها كما قال ــ تعالى ــ (لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى [2]) أي يصفونهم بأنهم إناث ومنه قوله ــ تعالى ــ (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً [3]) أي لا مثيل له . فليس المراد أنه عَلَم .

ومن المفسرين من جعل التسمية على ظاهرها وجعل (سلسبيلاً) علماً على هذه العين ، وهو أنسب بقوله ــ تعالى ــ (تسمَّى).

لكن ذكر بعض المفسرين : أنَّ كون (سلسبيلاً) مصروفاً مما يؤكد كونه صفة للعين لا اسماً .[4]

والمعنى العام لهذه الآيات : أنَّ الأبرار في متاعهم في جنة ربهم متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق ،، يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة ، وفي أكواب من فضة كذلك ، ولكنها شفة كالقوارير ، مما لم تعهده الأرض في آنية الفضة . وهي بأحجام مقدرة تقديراً يحقق المتاع والجمال . ثم هي تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور ، وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمي سلسبيلاً ، لشدة عذوبتها واستساغها لدى الشاربين.[5]

ثم يذكر ــ تبارك وتعالى ــ صورة أخرى من متاع الأبرار فيقول ــ جلَّ شأنه ــ:

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾[6]

---

(١)[الكشاف ٤ – ١٩٨ ، ١٩٩ وينظر : التحرير والتنوير ١٤ – ٣٩٥ ، ٣٩٦].

(٢) [سورة النجم آية رقم : ٢٧].

(٣) [سورة مريم آية رقم : ٦٥].

(٤) [ينظر : التحرير والتنوير ١٤ – ٣٩٦ ومدارك التنزيل ٢ – ٧٥٩ والمحرر الوجيز ٥ – ٤١٣ والبحر المحيط ٨ – ٣٩٠].

(٥) [الظلال ٦ – ٣٧٨٢].

(٦) [سورة الإنسان آية رقم : ١٩].

وظاهر هذا الكلام أنَّ هذا طواف آخر غير طواف السقاة المذكور آنفاً بقوله :(وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ) الخ ..

فهذا طواف لأداء الخدمة فيشمل طواف السقاة وغيرهم .

وقد وصف ــ تعالى ــ هؤلاء الطوافين على الأبرار في هذا الموضع بأكثر من صفة وهى كالتالي :

١ــ أنهم ولدان : وذلك أنَّ أحسن من يتخذ للخدمة الولدان لأنهم أخف حركة وأسرع مشياً ، ولأنَّ المخدوم لا يتحرج إذا أمرهم أو نهاهم .

٢ــ أنهم مخلدون : أي لا تتغير صفاتهم فهم ولدان دوماً وجيء بهذا الوصف مع أنَّ خلود الذوات في الجنة معلوم للاحتراس مما قد يوهمه اشتقاق " ولدان " من أنهم يشبون ويكتهلون .

٣ــ تشبيههم باللؤلؤ المنثور تشبيهاً مقيداً فيه المشبه بحال خاص لأنهم شبهوا به في حسن المنظر مع التفرق . فهم في حسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض كاللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفة لأنه أحسن وأكثر ماء.[1]

ولا شكّ أنَّ هؤلاء الطوافين للخدمة وهم بتلك الأوصاف مشعر بعظمة المخدومين .

ولمَّا كانت الجنة ــ وهى ما هي فيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ــ في تنوع نعيمها وجَلال وصفها قال ــ تعالى ــ جامعاً بين صورها البديعة وبين مناظرها الجليلة :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾[2]

يذكر العلماء أنَّ قوله " رأيت " في الآية الكريمة ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر لأنه عامّ . معناه : إنَّ بصرك أينما وقع في الجنة (رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً) عظيم القدر لا تحيط به عبارة وهو يشمل المحسوس والمعقول .[3]

وبعد اتفاقهم على أنَّ النعيم سائر ما يتنعم به اختلفوا في معنى الملك الكبير فمما قالوه في ذلك :

---

(١) [التحرير والتنوير ١٤ – ٣٩٧ وروح المعاني ١٦ ــ ٢٧٧].

(٢) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٠].

(٣) [البيضاوى ٢ – ٥٥٣].

١ــ الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم .

٢ــ الملك الكبير هو أنْ يأتي الرسولُ من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى وليّ الله وهو في منزله فيستأذن عليه فذلك المُلك العظيم .

٣ــ الملك الكبير هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجباً ، حاجباً دون حاجب

٤ــ الملك الكبير تسليم الملائكة عليهم .

٥ــ الملك الكبير كون التيجان على رؤسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك .

٦ــ الملك الكبير ملك لا يتعقبه هلك .

٧ــ الملك الكبير هو أنّ أدناهم منزلة ينظر في مُلكه مسيرة ألفي عام يري أقصاه كما يري أدناه ، قال – ﷺ –:" إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وخدمه وإنَّ أفضلهم منزلة من ينظر إلى وجه الله كل يوم مرتين .[1]

وكلُّ هذه معان محتملة ولكن الأولى بألفاظ الآية أنْ يقال :" ملكاً كبيراً " أي : مملكة لله هناك عظيمةً وسلطانا باهراً .

وعدّ البعض قوله :" وإذا رأيت ثم رأيت " خطاباً للنبي ــ ﷺ ــ ، وعده آخرون خطاباً لغير معين .

و " ثَمَّ " إشارة إلى المكان ولا يكون إلا ظرفاً والمشار إليه هنا ما جرى ذكره أي الجنة المذكورة في قوله (وجزاهم بما صبروا جنة).

والتقييد بـ " إذا " في قوله (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ) أفاد معنى الشرطية فدلَّ على أنَّ رؤية النعيم لا تتخلف عن بصر المبصر هنالك فأفاد معنى : لا ترى إلا نعيماً ، أي بخلاف ما يرى في جهات الدنيا .[2]

ثم خصَّص ــ تعالى ــ مظهراً من مظاهر النعيم والملك الكبير ، كأنه تعليل لهذا الوصف وتفسيره فقال :﴿ عَالِيَهُمْ

---

(١) [تفسير القرطبي ١٠ – ٦٩٣٥ ، ٦٩٣٦ بتصرف . والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٢ ــ ١٣ رقم : ٤٦٢٣ وأبو يعلى في مسنده ١٠ ــ ٩٦ رقم : ٥٧٢٩ ، والترمذي في سننه ٥ ــ ٤٣١ رقم ٣٣٣٠ كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة القيامة . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب].

(٢) [ينظر : تفسير ابن كثير ٤ ــ ٤٥٧ ومفاتيح الغيب ١٦ – ٧٦ والتحرير والتنوير ١٤ ــ ٣٩٨].

ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ من فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ (١)

قوله (عَالِيَهُمْ) ظرف بمعنى " فوقهم " على أنه خبر مقدم و(ثِيَابُ) مبتدأ مؤخر والجملة صفة أخرى لـ " ولدان " كأنه قيل :" يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب " الخ .

وقيل (عَالِيَهُمْ) حال من ضمير " عليهم " في قوله :(ويطوف عليهم) أو حال من حسبتهم ، والمعنى : يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب ..الخ أو : حسبتهم لؤلؤاً منثوراً عالياً لهم ثياب .. الخ . (٢)

ولا يخفى أنّ تقدير (عَالِيَهُمْ) حال من ضمير " هم " في قوله " ويطوف عليهم " أولى تناسقاً مع الضمائر في الآية الكريمة وما بعدها أعنى في قوله :" عَالِيَهُمْ " " وَحُلُّوا " " وَسَقَاهُمْ " و " إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً .. (٣) ".

" وفك الضمائر بجعل هذا كذا وذاك كذا مع عدم الاحتياج والاضطرار إلى ذلك لا يجوز "(٤)

هذا وقد تعددت القراءات في قوله (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) مما ترتب على ذلك كثرة المعنى وكثره وجوه الإعراب .

والأمر كما يلي :

قرأ ابنُ عباس " بخلاف عنه " والأعرجُ ، وأبو جعفر ، وشيبةُ ، وابنُ محيص ، ونافعٌ ، وحمزةُ (عَالِيْهِمُ) بسكون الياء وكسر الهاء وهي رواية أبان عن عاصم فهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء على أنه مبتدأ ، و" ثِيَابُ " خبره .

وقرأ ابنُ مسعود ، والأعمشُ ، وطلحةُ ، وزيدُ بن على " عَالِيَتُهُم " بالياء والتاء مضمومة ، وعن الأعمش أيضاً ، و أبان عن عاصم فتح التاء الفوقية " عَالِيَتَهُم " وتخريجهما كتخريج " عالِيْهِم " بالسكون والنصب أي تكون في موضع الحال .

وقرأ ابنُ سيرين ، ومجاهد في رواية ، وقتادة ، وأبو حيوه ، وابن أبي عبلة ، والزعفراني ، وأبان أيضاً :" عليهم " جاراً ومجروراً فهو خبر مقدم و" ثِيَابُ " مبتدأ مؤخر .

وقرأت عائشةُ :" علَتْهُم " بناء التأنيث فعلاً ماضياً فـ" ثِيَابُ " فاعل .

(١) [سورة الإنسان آية رقم : ٢١].
(٢) [إرشاد العقل السليم ٩ ــ ٧٥ وروح المعاني ١٦ ــ ٢٧٨]. بتصرف
(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٢].
(٤) [البحر المحيط ٨ ــ ٣٩١].

وقرأ عمرُ وابنُ عباس والحسن ومجاهد والجحدري وأهلُ مكة وجمهور السبعة (عالِيَهم) بفتح الياء . (١)

وقرأ حمزةُ والكسائي :" خضرِ وإستبرقٍ " بالكسر فيهما وهي قراءة الأعمش وطلحة ورويت عن الحسن وابن عمر بخلاف عنه على أنّ " خضرٍ " نعت لـ" سندسٍ " و " إستبرقٍ " في هذه القراءة عطف على (سندسٍ).

وقرأ نافع وحفص عن عاصم والحسن وعيسى " خضرٌ وإستبرقٌ " بالرفع فيهما ، " خضرٌ " نعت لـ " ثيابُ " و" إستبرقٌ " عطف على الثياب .

وقرأ أبو عمرو وابن عامر " خضرٌ " بالرفع صفة لـ " ثيابُ " و" إستبرقٍ " خفضاً عطفاً على " سندسٍ ".

وقرأ ابن كثير وعاصم (في رواية أبي بكر)" خضرٍ " خفضاً " وإستبرقٌ " رفعاً فخفض " خضرٍ " على ما تقدم أولاً من كونه نعتاً لـ " سندسٍ " و " إستبرقٌ " عطفاً على " ثيابُ ".

وقرأ أبو حيوة " عليهم ثيابٌ " بالرفع " سندسٌ خضرٌ وإستبرقٌ " رفعاً في الثلاثة . برفع " سندسٌ " بالصفة لأنه جنس ، كما تقول : ثوبٌ حريرٌ تريد من حرير ، وبرفع " خضرٌ " بالصفة أيضاً ، لأنّ الخضرة لونها ورفع " إستبرقٌ " بالعطف عليها ، وهو صفة أقيمت مقام الموصوف ، تقديره : وثيابٌ إستبرقٌ أي من إستبرق . (٢)

والمعنى : أنّ ما يعلوهم من ملابسهم ثياب سندس أي الديباج الرقيق وإستبرق أي الديباج الغليظ .. فهم يلبسون هذا وذاك جمعاً بين محاسن كليهما مع تميز لونهما باللون الأخضر لأنه أمتع للعين كما في قوله ــ تعالى ــ :

(١) [روح المعاني ١٦ – ٢٧٩ والبحر المحيط ٨ – ٣٩١ ، وفي كتاب النشر في القراءات العشر ٢ ــ ٣٩٦ :" قرأ المدنيان وحمزة عَالِيْهِمُ بإسكان الياء وكسر الهاء ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء " عالِيَهم "].

(٢) [المحرر الوجيز ٥ – ٤١٤ والبحر المحيط ٨ – ٣٩١ وفي كتاب النشر [٢ – ٣٩٦]:" واختلفوا في (خضر) فقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالخفض وقرأ الباقون بالرفع (واختلفوا) في (وإستبرق) فقرأ ابن كثير ونافع وعاصم بالرفع وقرأ الباقون بالخفض .
والعبرة بالقراءات المنقولة بالتواتر والمدونة في كتب القراءات المعتمدة . وما عداها من قراءات فهو شاذ].

(وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ [١])..

وقوله ــ تعالى ــ :(وَحُلُّوا) أي جعل لهم حُلي و (أساور) جمع سوار وهي من حُلي الذراع ، ووصف الأساور هنا بأنها (من فضة) وفي سورة الكهف بأنها (من ذهب) في قوله (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ [٢]) أي مرّة يحلّون هذه ومرة الأخرى أو يحلونهما جميعاً بأن تجعل متزاوجة لأنّ ذلك أبهج منظراً . [٣]

وقوله :(وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً) يدلّ على أكثر من معنى يناسب ختام أوصاف الجنة وتنعم أهلها فيها فمن ذلك :

١ــ إسناد السقية إلى الله ــ تعالى ــ إظهاراً لكرامتهم ، أي أمر هو بسقيهم كما يقال : أطعمهم ربُّ الدار وسقاهم .

٢ــ وصف الشراب بالطهور للدّلالة على أنه نوعٌ آخر يفوق النوعين السابقين ، أي ما مزج بالكافور وما مزج بالزنجبيل .

٣ــ يدلُّ وصف الشراب بالطهور على الاحتراس مما يوهمه شربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدنيا من الغَوْل وسوء القول والهذيان ، فعبّر عن ذلك بكون شرابهم طهوراً بصيغة المبالغة في الطهارة وهي النزاهة من الخبائث .

٤ــ ما في " طهوراً " أيضاً من الإشارة إلى مآل شربه حيث لا يصير بولاً بل يكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك .

٥ــ الإشارة إلى أنّ هذا الشراب لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة وتدوسه الأقدام الدنسة ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها . [٤]

ولمّا كان نعيم الدنيا قد يصيبه مَنْ المنعم به مما يسبب حزن المنعَم عليه وانكسار نفسه ، أراد ــ تعالى ــ أن يبين لعباده الأبرار أنّ هذا النعيم جزاء أعمالهم الصالحة رفعة لشأنهم وإيناساً لقلوبهم مع أنّ ما قدّموه قليل في جناب الله ، ولكنه تعالى ــ جل شأنه ــ يشكر السعي القليل ، وكيف لا وهو المنعم في هذه وتلك

---

(١) [سورة الكهف آية رقم : ٣١].
(٢) [" " " " "].
(٣) [التحرير والتنوير ١٦ ــ ٣٩٩ ، ٤٠٠ والمحرر الوجيز ٥ ــ ٤١٤].
(٤) [ينظر : روح المعاني ١٦ - ٨١ والكشاف ٤ - ٢٠ والتحرير والتنوير ١٤ - ٤٠٠ ومفاتيح الغيب ١٦ - ٨٠].

فقال ــ تعالى ــ :﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [١]

يقال ذلك بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم ما أعدّ لهم ..

والآية مقول قول محذوف يقدر فعلاً في موضع الحال من ضمير الغائب في " سقاهم " ، نحو " يقال لهم " أو " يقول لهم ربهم " أو يقدر اسماً هو حال من ذلك الضمير نحو :" مقولاً لهم هذا اللفظ " أو قائلاً لهم هذا اللفظ .

والمقصود هنا : الثناء عليهم بما أسلفوا من تقوى الله وتكرمتهم بذلك ، وتنشيط أنفسهم بأنّ ما أنعم به عليهم هو حق لهم جزاءً على عملهم

وإقحام فعل (كان) للدلالة على تحقيق كونه جزاءً لا منّاً عليهم بما لم يستحقوا .

فإنّ من تمام الإكرام عند الكرام أن يتبعوا كرامتهم بقول ينشط له المكرَم ويزيل عنه ما يعرض من خجل ونحوه ، أي هو جزاء حقاً لا مبالغة فيه .

وعطف على ذلك قولَه (وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً) علاوة على إيناسهم بأن ما أغدق عليهم كان جزاء لهم على ما فعلوا بأنّ سعيهم الذي كان النعيمُ جزاءً عليه ، هو سعي مشكور ، أي مشكور ساعيه ، فأسند المشكور إلى السعي على طريق المجاز العقلي مثل قولهم: سيلٌ مُفْعَم .

ومعنى " مشكوراً " أي : مرضياً مقبولاً ، أو مجازىً عليه غير مضيع . [٢]

وبعد هذا الحديث عن الأبرار وحالهم في الجنة قال ــ تعالى ــ

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [٣]

وقد تعددت أقوال المفسرين المهتمين بالمناسبات في ربط هذا الموضع من الآيات بما قبله .

فالإمام الرازي مثلاً يشرح سير السورة من أوّلها ليصل إلى هذا الموضع فيقول :" اعلم أنه ــ سبحانه ــ بيّن في أوّل السورة أنّ الإنسان وجد بعد العدم بقوله ــ تعالى ــ :(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً) [٤] ...

ثم بيّنَ بعد ذلك أنّي ما خلقته ضائعاً عاطلاً باطلاً ، بل خلقته لأجل الابتلاء

---

(١) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٢].
(٢) [روح المعاني ١٦ - ٢٨٢ التحرير والتنوير ١٤ ــ ٤٠١].
(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٣ ، ٢٤].
(٤) [" " " " " : ١].

والامتحان ، واليه الإشارة بقوله ــ تعالى ــ:(نبتليه) (١) ..

ثم ذكر ــ تعالى ــ أني أعطيته ما يحتاج إليه عند الابتلاء والامتحان ، وهو السمع والبصر فقال (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) (٢) ..

ثم إنه ــ تعالى ــ ذكر عذاب الكفار على الاختصار ثم ذكر بعد ذلك ثوابَ المطيعين على الاستقصاء ، وهو إلى قوله ــ تعالى ــ (وكان سعيكم مشكوراً) (٣) ..

فظهر مما بيّنا أنّ السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة .

ثم إنّه ــ تعالى ــ شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا ، وقدّم شروح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين .

والمطيعون هم الرسول وأمّته ، والرسول هو الرأس والرئيس ، فلهذا خصّ الرسول بالخطاب "هـ (٤) .

هذا ما قاله الإمام الرازى وهو كما ترى وصف لسير الآيات أكثر منه من بيان المناسبات .

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور :" وفي إيراد هذا بعد طول الكلام في أحوال الآخرة قضاءٌ لحق الاعتناء بأحوال الناس في الدنيا فابتدئ بحال أشرف الناس وهو الرسول ــ ﷺ ــ ثم بحال الذين دعاهم الرسول ــ ﷺ ــ بين مَنْ (يحبون العاجلة) و " مَن اتخذ إلى ربه سبيلاً " فادخلهم في رحمته "هـ (٥)

ويقول الأستاذ سيد قطب :" وبعد انتهاء هذا الهتاف إلى الجنة ونعيمها الهنيء الرغيد ، يعالج حالة المشركين المصرين على العناد والتكذيب ، الذين لا يدركون حقيقة الدعوة ، فيساومون عليها الرسول ــ ﷺ ــ لعلّه يكف عنها ، أو عمّا يؤذيهم منها .

وبين المساومة للنبي ــ ﷺ ــ وفتنة المؤمنين به وإيذائهم ، والصد عن سبيل الله ، والإعراض عن الخير والجنة والنعيم .. بين هذا كله يجيء المقطع الأخير في السورة يعالج هذا الموقف بطريقة القرآن الكريم (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثماً أَوْ كَفُوراً ..) الخ "هـ (٦)

---

(١) [. . . . : ٢].
(٢) [. . . . : ٣].
(٣)[سورة الإنسان آية رقم : ٢٢].
(٤) [مفاتيح الغيب ١٦ ــ ٨٢ ، ٨٣].

(٥) [التحرير والتنوير ١٤ ــ ٤٠٢].
(٦) [الظلال ٦ ــ ٣٧٨٣].

هذه أقوال في مناسبة هذه الآيات بما قبلها ولكنها لم تتعمق في بيانها وإظهارها ولعلّ أفضل ما يقال في بيان تلك المناسبة: إنّ الحديث السابق عن الجنة وما فيها وكذلك حال الأبرار وما أعد لهم ينتج عنه أمران حسب الواقع :

أولاً : وجود من يكذب بهذا الحديث وبمصدره

ثانياً : وجود من يصدق به ويعمل في الوصول إلى ما جاء فيه .

أما الأول : فيؤكد له صحة مصدره الإلهي مع ما يلزم من ذلك من التأمل فيه ، واليقين بعدم القدرة عن الإتيان بمثله فقال ــ تعالى ــ:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً)

وأمّا الثاني : فدعوته إلى الثبات والصبر وعدم الانحراف عن منهج الله ــ تعالى ــ حتى يصل إلى ذاك النعيم الأبدي، ولا أحد أقدر على إحكام ذلك من سيد الخلق وقدوة العالمين محمد ــ ﷺ ــ(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ..) الآيات . والله أعلم .

قوله ــ تعالى ــ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً ﴾

تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لـ " إن " تأكيدٌ على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ليتقرر في نفس رسول الله ــ ﷺ ــ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أي وجه نزل إلا حكمة وصواباً .."(١)

وفي تكرير هذا الضمير أيضاً ــ مع ما سبق ذكره من المناسبة بين هذه الآية وما قبلها ــ مع ضمير المخاطب (عليك) بيان لمصدر الوحي وهو الله ــ تعالى ــ وبيان المنزل عليه وهو محمد ــ ﷺ ــ والحجة على هذا وذاك هو هذا القرآن المعجز بآياته ...

كذلك التعبير بلفظ " التنزيل " المفيد لتنجيم القرآن ونزوله على أوقات وأمكنة مختلفة تثبيتاً لقلب الرسول ــ ﷺ ــ ومعالجة للمواقف والأحداث .

ولما كان كلُ ذلك سيقابل بالإنكار من الكافرين ومحاولة زعزعة الرسول بالشبهات أوصاه ــ تعالى ــ بالصبر على ذلك ، ومحاولة إصلاح الذات أولاً بأول وشغل القلب عنهم برب العالمين ــ سبحانه وتعالى ــ.

---

(١) [الكشاف ٤ ــ ٢٠٠].

فقال ــ تعالى ــ موصياً رسوله ــ ﷺ ــ: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) أي إذا قابلوك بالتكذيب والطعن فيما جئت به وبما نزل عليك من كتاب ربك (فاصبر)

يقول الإمام الرازى ــ رحمه الله ــ:" واعلم أنّ المقصود من هذه الآية (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ تَنزِيلاً) تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر ، فذكرَ الله ــ تعالى ــ أنّ ذلك وحيٌ من الله ، فلا جرم بالغ وكرر الضمير بعد إيقاعه اسماً ، لأن تأكيداً على تأكيد أبلغ ، كأنه ــ تعالى ــ يقول : إنّ هؤلاء الكفار يقولون : إنّ ذلك كهانة ، فأنا اللهُ الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة : إنّ ذلك وحي حق وتنزيل صدق من عندي "هـ[1]

وقوله ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾

أي فاصبر في كلّ ما حكم به ربُّك سواء كان ذلك تكليفاً خاصاً بك من العبادات والطاعات .

أو متعلقاً بالغير وهو التبليغ وأداء الرسالة ، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك .. وسُمي هذا " حكماً " لأنّ الرّسالة عن الله لا خيرة للمرسل إليه في قبولها والاضطلاع بأمورها ..

وعدي فعل " اصبر " باللام لتضمن الصبر معنى الخضوع والطاعة للأمر الشاق والمقصود من النهى (ولا تطع) تأييسهم من استجابته لهم حين يقرأ عليهم هذه الآية لأنهم يحسبون أنّ ما عرضوه عليه سيكون صارفاً له عمّا هو قائم به من الدعوة إذْ هم بعداء عن إدراك ماهية الرسالة ونزاهة الرسول - ﷺ -.

والطاعة : امتثال الطلب بفعل المطلوب وبالكف عن المنهي عنه فقد كان المشركون يعمدون إلى الطلب من النبي - ﷺ - أن يفعل ما يرغبون ، مثل طرد ضعفاء المؤمنين من المجلس ، والإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله بما يشايع أحوالهم ، وأن يكفّ عمّا لا يريدون وقوعه من تحقير آلهتهم ، والجهر بصلاته ، فحذره الله من الاستماع لقولهم وإياسهم من حصول مرغوبهم .

ومقتضى الظاهر أنْ يقول : ولا تطعهم ، أو " ولا تطع منهم أحداً " فعدل عنه إلى (آثماً أو كفوراً) للإشارة بالوصفين إلى أنّ طاعتهم تفضي إلى ارتكاب إثم أو كفر ، لأنهم في ذلك

(١) [مفاتيح الغيب ١٦ - ٨٤].

يأمرونه وينهونه غالباً فهم لا يأمرون إلا بما يلائم صفاقهم .

وفائدة حرف " أو " في قوله (آثماً أو كفوراً) ليفيد النهى عن طاعة كل واحد منهما ، ولو جئ " بالواو " بدلاً من " أو " لجاز أن يكون نهياً عن طاعتهما جميعاً لا عن طاعة أحدهما.

وبيان ذلك أنك لو قلت : لا تطع زيداً وعمراً " فأطاع أحدهما كان غير عاص ، فإذا أبدلتها بـ " أو " فقد دلّلت على أنّ كل واحد منهما أهل لأن يعصى، ويعلم منه النهى عن إطاعتهما معاً كما لا يخفى .

والآثم : هو المُقدم على المعاصي أيّ معصية كانت ، والكفور هو الجاحد للنعمة وكل من عبد غير الله ــ تعالى ــ فقد اجتمع فيه هذان الوصفان لأنّ من عبد غيره فقد عصاه وجحد إنعامه .

وقد كان ذكر أحد هذين الوصفين (آثماً أو كفوراً) مغنياً عن ذكر الآخر ، ولكن أفاد الجمع بينهما تشويه حال المتصف بهما قال - تعالى-:(وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ[1])

و " مِنْ " في قوله :" ولا تطع منهم " للتبعيض ، والضمير المجرور بها عائد للمشركين ولم يتقدم لهم ذكر لأنهم معلومون من السياق ، أو لأنهم المفهوم من قوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ تَنزِيلاً) أيْ لا كما يزعم المشركون أنك جئت به من تلقاء نفسك ، ومن قوله " فاصبر لحكم ربك " أي على أذى المشركين ، ويؤول المعنى : ولا تطع أحداً من المشركين .[2]

وبعد أمر الله ــ تعالى ــ لرسوله بالصبر على أداء التكاليف وتبليغ الرسالة .. يوجهه ــ تعالى ــ إلى أفضل السبل المعينة على هذا ، والملجأ الذي يأوي إليه من الكفار وإثمهم ، بأن يديم ذكر الله ــ تعالى ــ وعبادته .. مما يعود عليه ــ ﷺ ــ بالأثر الطيب في استحضار عظمة الله والأنس بحضرته ، واستبدال تلك المشاق والأحزان بالرحمات الربانية والإشراقات النورانية فقال ــ تعالى ــ:﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾[3]

قَيدَ البعضُ " الذكرَ " هنا بالصلاة . والمعنى : صلّ لربك أوّل النهار وآخره

(١) [سورة البقرة آية رقم : ٢٧٦].

(٢)[ينظر: مفاتيح الغيب ١٦ - ٨٤ والتحرير والتنوير ٤ / ٤٠٣ - ٤٠٥ والبحر المحيط ٨ - ٣٩٢ وروح المعاني ١٦ - ٢٨٤].

(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٥ ، ٢٦].

ففي أوّله صلاة الصبح وفي آخره صلاة الظهر والعصر .

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ) أي صلاة المغرب والعشاء الآخرة ، وعبّر عن الصلاة هنا بـ " السجود " من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

(وسبحه ليلاً طويلاً) يعني : التطوع بالليل . وتنوين " ليلاً " للتبعيض . أي قطعاً من الليل طويلاً ، وأصل التسبيح التنزية ويطلق على مطلق العبادة القولية والفعلية .

فالآيتان على ذلك : بيان لتشريع الصلاة وأوقاتها وكذلك الأمر بالتطوع في الليل ، على سبيل الندب ، وقيل : كان ذلك – أي التطوع – فرضاً ونسخ فلا فرض اليوم إلا الخَمْس . وقيل : الأمر هنا في شأنه عليه ـ الصلاة والسلام ـ محكم .

وأطلق البعضُ الآخر لفظَ " الذكر " فيشمل الصلاة وغيرها .

فالأمر في قوله :(واذكر) مستعمل في مطلق الطلب من وجوب ونفل .

وهذا أولى بتفسير الآية الكريمة والأقرب من حيث النَّظْم إذْ إنه ـ تعالى ـ لما نهى حبيبه – ﷺ – عن إطاعة الآثم والكفور ، وحثّه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة ، وأراد سبحانه أنْ يرشده إلى متاركتهم .. عقّب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلاً ونهاراً بالصلوات كلّها من غير اختصاص ، وبالتسبيح لما يطيق على منوال قوله ـ تعالى ـ :(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ [1]).[2]

وبعد أمر الله ـ تعالى ـ لرسوله بالذكر والتسبيح " في كلّ أوقاته عاد الحديث ليصور لنا الكفار بصورة أخرى .. فبعد أن سبق ذكرهم بأنهم أهل تكذيب وإثم وشرك بل ويدعون رسول الله – ﷺ – ليتابعهم على هذا..!

أقول : عاد الحديث ليصور لنا الكفار وقد انهمكوا في حب الدنيا ، هذه الدنيا العاجلة الفانية دون نظر إلى العاقبة ، وما أدراهم ما هذه العاقبة ؟ إنه يوم ثقيل بتبعاته ونتائجه ، ثقيل بوزنه في ميزان الحقيقة .. إنّ هؤلاء لا يطاعون في شئ ولا يتبعون في طريق ، ولا يلتقون مع المؤمنين في هدف ولا غاية ..، فإنما هي

---

(١) [سورة الحجر آية رقم : ٩٧ ، ٩٨].

(٢) [ينظر : تفسير القرطبي ١٠ – ١٩٤١ والتحرير والتنوير ١٤ – ٤٠٥ وروح المعاني ١٦ – ٢٨٥].

العاجلة غايتهم وإنما هو المتاع القليل مناهم ، وتلك هي الصورة :﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ [1]

توحي الآية الكريمة بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، فهم يختارون العاجلة ، ويذرون اليوم الثقيل الذي ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير ، بعد الحساب العسير !

فالآية استطراد في تثبيت الرسول – ﷺ – والمؤمنين معه ، في مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة ما يحبّون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .[2]

وبنظرة تحليلية لهذه الآية الكريمة نقول :

موقع " إنّ " في قوله :(إنّ هؤلاء..) الخ موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية .

فالآية تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) أي لأنّ خُلُقَهم الانصباب على الدنيا مع الإعراض عن الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث ، فلو أطاعهم لتخلق بخلقهم قال ـ تعالى ـ :(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ .. [3] " الآية .

و " هؤلاء " إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطب لكثرة الحديث عنهم ، والمقصود به المشركون .

وصيغة المضارع في " يحبّون " يدلّ على تكرّر ذلك ، أي أنّ ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة .

والعاجلة : صفة لموصوف محذوف معلوم من المقام تقديره : الحياة العاجلة ، أو الدّار العاجلة ، والمراد بها مدة الحياة الدنيا .

ومتعلق (يحبّون) مضاف محذوف ، تقديره : نعيمَ أو منافعَ لأنّ الحبَّ لا يتعلق بذات الدنيا .

وفي إيثار ذكر الدنيا بوصف (العاجلة) توطئة للمقصود من الذّم لأنّ وصف العاجلة يؤذن بأنهم آثروها لأنها عاجلة ، وفي ذلك تعريض بتحميقهم إذ رضُوا بالدُّون لأنّه عاجل وليس ذلك من شيم أهل التبصر ، فقوله :(وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً) واقع موقع

---

(١) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٧].

(٢) [الظلال ٦ – ٣٧٨٦]. بتصرف

(٣) [سورة النساء آية رقم : ٨٩].

التكميل لمناط ذمهم وتحميقهم لأنهم لو أحبُّوا الدنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين قال ــ تعالى ــ حكاية لقول الناصحين لقارون (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا [1] ..) الآية

وقوله (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً) وراءهم : بمعنى أمامهم .

وكون يوم القيامة " أمامهم " ظاهر .

أو يكون " وراءهم " بمعنى خلفهم فيكون في الكلام تمثيل حالهم بحال من يترك شيئاً وراءه فهو لا يسعى إليه وإنما يسعى إلى ما بين يديه.

والمعنى : أنهم أعرضوا عن هذا اليوم لأنهم لا يؤمنون بحلوله فكيف يسعون إليه ؟

ووصف يوم القيامة باليوم الثقيل على وجه الاستعارة حيث شبه هول هذا اليوم وما يحصل فيه من المتاعب والكروب بشيء ثقيل لا يستطاع حمله.[2]

ولا يخفى ما في قوله ــ تعالى ــ: (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً) من الإشفاق على حالهم لأنهم خَلْق الله ، وتنبيههم إلى أنَّ الأمر جدّ خطير ، وإخبارهم بهذا قطعاً للأعذار في يوم لا يملكون فيه إرادة ولا اختياراً ..

ولما كان هذا اليوم محل شك وإنكار من المشركين كما ينبئ عن ذلك قوله ــ تعالى ــ : (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً) ساق الله ــ ﷻ ــ لهم أدلة إمكان وقوعه من واقع نعمه التي أسبغها عليهم فقال : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾[3]

والمتأمل في السورة الكريمة يرى أنَّ هذه الآية الكريمة تمثل مع ما قبلها عوداً على بدء ، ففي أوّل السورة ذكر ــ تعالى ــ خلق الإنسان من نطفة أمشاج .. ليبرهن على إثبات الإعادة بأمر البدء كما ينبئ عنه مناسبة آخر سورة القيامة في قوله ــ تعالى ــ: (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى [4]) بأوّل سورة الإنسان (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ

(١) [سورة القصص آية رقم : ٧٧].
(٢) [التحرير والتنوير ١٤ ــ ٤٠٨ وروح المعاني ١٦ ــ ٢٨٦]. بتصرف

(٣) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٨].
(٤) [سورة القيامة آية رقم : ٤٠].

الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ..) الآية .

وكذلك الأمر في آيتنا تلك مع ما قبلها إذْ إنَّهما يمثلان إعادة لتلك المناسبة بين خاتمة سورة القيامة ، وفاتحة سورة الإنسان وبيان ذلك : أنّ قوله ــ تعالى ــ: (وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً) متضمن لإنكارهم وقوع ذلك اليوم .. فجئ بقوله (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. الآية) ليكون دليلاً للإنكار عليهم وإبطالاً لشبهتهم ببيان إمكان إعادة خلقهم ، بعيده الذي خلقهم أوّل مرة كما قال ــ تعالى ــ: (فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [1]).

والآية الكريمة (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ)... الخ تشتمل على بيان مرحلة أخرى من مراحل خلق الإنسان دلك أنه ــ تعالى ــ لم يخلقه خلقاً ضعيفاً غير متماسك تتراكم أجزاؤه بعضها فوق بعض .. بل إنه ــ جلت قدرته ــ شدّ هذه الأجزاء وربطها بالأعصاب والعروق لتكون بمثابة الجذوع للأغصان والفروع ، أو بمثابة الجبال في إمساكها بالأرض من هنا ومن هنا أو بمثابة الحبال التي تشد بها شراعُ السفينة . أو بمثابة المسامير التي تثبت بها قطع الأخشاب في مكانها المناسب إلى آخر تلك المظاهر التي نري فيها جمع شئ إلي شئ برباط محكم بينهما .

ومعاني هذه الآية الكريمة تدور على النحو التالي :

قوله ــ تعالى ــ:(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ) أي نحن الذين خلقناهم لا أحد غيرنا .

وافتتاح الجملة بالمبتدأ المخبر عنه بالخبر الفعلي دون أنْ تفتتح بـ (خلقناهم) أو (نحن خالقون) لإفادة تقوّي الخبر وتحقيقه بالنظر إلى المعنيِّين بهذا الكلام وإن لم يكن خطاباً لهم ولكنهم هم المقصود منه .

وتقوية الحكم بناءً على تنزيل أولئك المخلوقين منزلة من يشك في أنَّ الله خلقهم وبيان ذلك أنهم أنكروا أنّ الله يعيد الخلق بعد البلَى ، فكأنهم يسندون الخلق الأول لغيره .

(وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ) أي أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، والأسر في الأصل : الشدّ والرّبط ، وأطلق على ما يشدّ به ويربط كما هنا ، وإرادة الأعصاب والعروق لشبهها بالحبال المربوط بها ووجه الشبه ظاهر .

(١) [سورة الإسراء آية رقم : ٥١].

والمعنى : أحكمنا ربط أجزاء أجسامهم فكانت مشدوداً بعضها إلى بعض.[١]

ثم توعدهم الله بالتبديل بعد تعديد النعمة فقال (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً) فاجتمع من القولين (تعديد النعمة والوعيد بالتبدل) الاحتجاج على منكري البعث ، أي من هذا الإيجاد والتبديل إذا شاء في قدرته فكيف تتعذر عليه الإعادة ؟

واجتلاب (إذا) في هذا التعليق لأنّ شأن " إذا " أن تفيد اليقين بوقوع ما قُيد بها بخلاف حرف (إنْ) فهو إيماء إلى أنّ حصول هذه المشيئة مستقرب الوقوع . فيجوز أن يكون هذا بمنزلة النتيجة لقوله " نحن خلقناهم .." الخ ، ويحمل الشرط على التحقق قال ــ تعالى ــ(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ[٢]).

ويجوز أن يكون قوله (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ) تهديداً لهم على إعراضهم وجحودهم للبعث ، أي لو شئنا لأهلكناهم وخلقنا خلقاً آخر مثلهم كقوله ــ تعالى ــ(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ[٣]).

والأمثال جمع " مثل " وهو المماثل في ذات أو صفة ، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم ، وهو التبديل الذي سيكون في المعاد. ويجوز أن يراد " أمثالهم " في أنهم أممٌ غيرهم .

وعلى الوجه الأول فهو يدلُ على أنّ البعث يحصل بخلق أجسام مثال الأجساد التي كانت في الحياة الدنيا للأرواح التي كانت فيها .

وانتصب " تبديلاً " على المفعول المطلق المؤكدّ لعامله للدّلالة على أنه تبديل حقيقي ، والتنوين فيه للتعظيم .

والمعنى : أنّ هؤلاء لا يُعجزون الله بقوتهم ، وهو خلقهم وأعطاهم إياها ، وهو قادر على أنْ يخلق أمثالهم في مكانهم .. فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته .. أو أنهم في قبضته يهلكهم ، ويبدل أمثالهم تبديلاً بديعاً لا ريب فيه هو البعث ..

ومن هنا تكون الآية استطراداً في تثبيت الرسول ــ ﷺ ــ ومن معه ، وتقريراً لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين

(١) [روح المعاني ١٦ ــ ٢٨٦ والتحرير والتنوير ١٤ ــ ٤١٠].

(٢) [سورة الذاريات آية رقم : ٦].

(٣) [سورة إبراهيم آية رقم : ١٩].

.. كما أنها نداءٌ لقلوب هؤلاء المستغرقين في العاجلة ، المغترين بقوة أسْرهم ، ليذكروا نعمة الله ، التي يتبطرون بها فلا يشكرونها ، وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة ، وهو الابتلاء الذي قرره لهم في مطلع السورة..[١]

وبعد الحديث عن أدلة وبراهين البعث ومآل كلٍّ من المؤمنين والكافرين في هذا اليوم يذكر الله ــ تعالى ــ لخلقه أنّ الحديث عن هذا كلّه ما هو إلا تذكرة منه ــ تعالى ــ فقال :﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾[٢]

والمعنى : أنّ هذه السورة بما فيها من الترتيب العجيب والنسق البعيد ، واللفظ الرشيق ، في الأسلوب الأنيق ، والمعنى الدقيق ، في الخطاب الرقيق ، تذكرة للمتأملين ، وتبصره للمستبصرين (فَمَن شَاءَ) من هؤلاء المكذبين الادّكار والاتعاظ والانتفاع بهذه السورة والمشي على نورها (اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) أي أمكنه أن يتخذ الإيمان والطاعة ، واتباع الحق وتصديق محمد ــ ﷺ ــ سبيلاً يؤدي به إلى رضوان ربه ، ودخول دار كرامته ، وذلك لما منحه من الهداية والتذكير ، والدلالة على الحق في هذه السورة ، وسائر سورة القرآن مع ما متعه الله به من نور العقل وقوة الاستنتاج ونعمة الحواس ، فأسباب الخلاص ميسورة ، وسبل النجاة ممهدة تحت مواقع أبصار العاملين إنْ أرادوا ..[٣]

وبنظرة تحليلية لهذه الآية نقول:

قوله ــ تعالى ــ:(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ..) الآية

أكّد الكلام بحرف " إنّ " لأنّ حال المخاطبين عدم اهتمامهم بها فهم ينكرون أنها تذكرة .

وجاء اسم الإشارة مؤنثاً على معنى أنّ المشار إليه هو ما سبق من الآيات المتقدمة أو إلى السورة أو على جملة الشريعة على قول البعض .

والتذكرة : مصدر ذكّره (مثل التزكية) أي أكلمه كلاما يُذكره به ما عسى أنْ يكون نسيه . أطلقت هنا على الموعظة بالإقلاع عن عمل شيءٍ والإقبال على عملٍ صالح وعلى وضوح الخير

(١) [التحرير والتنوير ١٤ ــ ٤١٠ والمحرر الوجيز ٥ ــ ٤١٥ والظلال ٦ ــ ٣٧٨٧ وإرشاد العقل السليم ٩ ــ ٧٦].

(٢) [سورة الإنسان آية رقم : ٢٩].

(٣) [تفسير جزء تبارك ١٢٤].

والشر لمن تذكر ، أي تبصر بتشبيه حالة المعرض عن الخير المشغول عنه بحالة الناسي له ، لأنّ شأنه ألا يفرط فيه إلا من كان ناسياً لما فيه من نفع له .

وفرّع عليه الحث على سلوك سبيل مرضاة الله بقوله (فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) أي : ليس بعد هذه التذكرة إلا العمل بها إذا شاء المتذكر أنْ يعمل بها.

واتخاذ السبيل : سلوكه عبّر عن السلوك بالاتخاذ على وجه الاستعارة .

ففي قوله (اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) استعارتان ، لأنّ السبيل مستعار لسبب الفوز بالنعيم والزُّلفى .

و(إِلَى رَبِّهِ) متعلق بـ(سَبِيلاً) أي سبيلاً مبلغه إلى الله وإضافة (ربّ) إلى ضمير (مَن شَاءَ) ليدل على أنّ سعادة العبد في الحظوة عند ربه .[1]

وبعد هذه الآية – والتي تظهر رحمة الله بخلقه إذْ ينصحهم ويعظهم ويدعوهم إلى سلوك السبيل لمرضاته – تعالى – يعطف بآية أخرى تظهر جانب عظمته وقدرته على خلقه متمثلاً ذلك في الحديث عن مشيئته المطلقة ، والتي هي – ولا شك – تحتوى مشيئتهم واختيارهم..

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[2]

فما مشيئتهم هذه لسلوك سبيل مرضاة الله – مع ما يعتري هذه السبيل من معوقات لا يستطيعون الفكاك منها – بجانب مشيئة علام الغيوب ذي المُلك والملكوت وهو صاحب هذه السبيل والقادر على حماية سالكيها ؟

إنّ التفسير القريب لهذه الآية بما يتفق ما سابقتها أنْ يقال :" لما ناط اختيارهم سبيلَ مرضاة الله بمشيئتهم أعقبه بالتنبيه إلى الإقبال على طلب مرضاة الله للتوسل برضاه إلى تيسير سلوك سبل الخير لهم ، لأنهم إذا كانوا منه بمحل الرضى والعناية لطَفَ بهم ويسَّر لهم ما يعسُر على النفوس من المصابرة على ترك الشهوات المهلكة ، قال – تعالى –:(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)[3] فإذا لم يسعوا إلى مرضاة ربهم وكَلهم إلى أحوالهم التي تعودوها فاقتحمت بهم مَهَاوِيَ العماية إذ هم محفوفون بأسباب الضلال بما استقرت عليه جبلاّتهم من إيثار الشهوات ، والاندفاع مع عصائب

(١) [التحرير والتنوير ١٤ – ٤١٣]. بتصرف

(٢) [سورة الإنسان آية رقم : ٣٠].

(٣) [سورة الليل آية رقم : ٧].

الضلالات ، وهو الذي أفاده قوله – تعالى –(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)[1] أي نتركه وشأنه فتيسر عليه العسرى ، أي تلحق به بلا تكلف ومجاهدة ..

أو يقال : قوله – تعالى –:(وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..)

بعد قوله (فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) ليُعلّم قلوب البشر أنّ الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار ، فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره

وهذا هو مجال هذه الحقيقة الذي تجرى فيه في مثل هذه النصوص . مع تقرير ما شاءه الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ، والاتجاه إلى هذا أو ذاك وَفق مشيئة الله ، العليم بحقيقة القلوب ، وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة وبيان الطريق ، وإرسال الرسل ، وتنزيل القرآن ...

إلاّ أنّ هذا كلّه ينتهي إلى قدر الله ، الذي يلجأ إليه الملتجئ ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة ، فإذا لم يعرف في قلبه حقيقة القدرة المسيطرة ، ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره ، فلا هدىً ولا ذكر ، ولا توفيق إلى خير ..[2]

وإذا ما توسعنا في النظر إلى هذه الآية الكريمة – أعنى قوله – تعالى –(وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ) وجدنا أنه قد حصل من صدر هذه الآية ونهايتها ثبوت مشيئتين :

إحداهما مشيئة العباد والأخرى مشيئة الله ، وقد جمعتهما هذه الآية فكانت أصلاً للجمع بين متعارض الآيات القرآنية المقتضي بعضُها بانفراده نَوْط التكاليف بمشيئة العباد وثوابهم وعقابهم على الأفعال التي شاءوها لأنفسهم ، والمقتضي بعضها الآخر مشيئة الله في أفعال عباده .

وتلك مسألة من محار الإفهام ، ومزل أقدام أقوام بعد أقوام – كما عبر الإمام الألوسي – رحمه الله –[3] .

ولكن للعلماء " في هذه المسألة " آراء " للجمع بين تلك النصوص التي تثبت قدرة الله المطلقة وأنه لا يكون شئ في خلقه إلا بإذنه – سبحانه وتعالى – وبين تلك النصوص التي تثبت للعبد فعلاً واختياراً على إثرهما سيكون الحساب والجزاء ومن المعلوم أنّ هناك من مال مطلقاً إلى النصوص الأولى معتبرين أنّ

(١) [سورة الليل آية رقم : ١٠].

(٢) [التحرير والتنوير ١٤ – ٤١٢ والظلال ٦ – ٣٧٨٧]. بتصرف

(٣) [ينظر : روح المعاني ١٦ – ٢٨٨].

العبد مجبور في أفعاله لا قدرة لـــــه ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله ـــ تعالى ـــ الأفعال على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ، وهؤلاء هم " الجبرية "(١).

وهناك من مال إلى الثاني مطلقاً معتبرين أنّ العبد قادر على خلق فعله من خير وشرّ دون تدخل من الله في ذلــك ، حتى يصح حسابه وجزاؤه علـى فعل صدر منه هو لا من غيره .. وهؤلاء هـم المعتزلة (٢).

ولا يخفى ما ينتج عن الأول منـهما من مفزعات الاعتقاد وسيئات الأعمال ، وانهدام صرح البشرية تحت الوثنيات وقبائح الأخلاق . فهم من طائفة الـذين قالوا(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا)(٣)

كما لا يخفى ما ينتج عن الثاني من نسيان صاحب ذي الأمر والسلطان والزعم بقدرة العبد على خلق فعله وإيجاده وأنه لا قيود على حريته وإرادته ، وإذا قالوا ذلك ليصح الحساب والجزاء ـ على زعمهم ـ فهل هناك إثم يحاسب عليه الإنسان أكبر من هذا الاعتقاد ؟

على أنّ التوفيق بين هذه النصوص ممكن حتى يهرب الإنسان من مكر الوثنية والشهوات الحيوانية ، ويبقى في ربقة العبودية ، فإذا حصَّل ذلك فهو في طريق الله تعالى دون إفراط أو تفريط .

وجملة الأقوال في ذلك :

إنّ نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها : تثبت أنّ العبد لـه إرادة واختيار هما مناط التكليف والمؤاخذة .

وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك النصـوص ... سأل سائل علياً ـ ﵁ ـ فقـال :" أكان مسيرك إلى الشام ـ يعنى لقتال أهلها ـ بقضاء الله وقدره ؟ فقـال لـه :" ويحك

(١) [هم أتباع جهم بن صفوان الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال وأنكر الاستطاعات كلّها ... وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز .. [الفرق بين الفرق ١ ـــ ١٩٩ " عبد القاهر البغدادي " ـ ط دار الآفاق الجديدة ـ بيروت / الثانية ١٩٧٧م].

(٢) [هم أصحاب واصل بن عطاء الغزال لما اعتزل مجلس الحسن البصري يقرر أنّ مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين فطرده ، فاعتزله وتبعه جماعه سموا بالمعتزلة . [ينظر : الملل والنحل للشهرستاني ج١ـ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٢ بيروت الثانية ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م].

(٣) [سورة الأنعام آية رقم : ١٤٨].

! لعلك ظننت قضاءً لازماً ، وقدراً حاتماً ولو كان ذلك ، لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . إنّ الله ـــ سبحانه ـــ أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، ولم يُطع مكرهـاً ، ولم يرسل الأنبياء لعباً ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً ، ولا خلق السماوات والأرض ومـا بينهما باطلاً ـ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار "(١)

وسمع بعضهم من غنّى بقول العباس بن الأحنف (٢)

فأكثروا أو اقلّوا من إساءتكم
فكلُّ ذلك محمول على القدر

فجنّ واستغاث وشق الجيب وحولق واستغفر وقال : يا قوم ، أما تـرون إلى العباس ابن الأحنف لا يكفيه أن يجن .. حتى يكفر ، مـتى كانـت الفضائح والذنوب والعيوب محمولة على القدر ؟

ومتى قدّر الله الأشياء وقد نهى عنها؟ ولو قدّرها كان قد رضي بها ، ولو رضي بها ما عاقب عليها ، ولو قـدَّرها علـى عبده وعاقب عليها ، كان مـن الظلم الذي يقبح بالمخلوق ، فكيف بالخـالق ؟ إنّا لله ، لعن الله الغزل إذا شيب بمجانة ، ولعن المجانة إذا قرنت بمـا يقـدح في الديانة".

وما زال يقول هذا وأشباهه حتى ردّ عليه بعضهم فقال :" هوّن عليـك يـا شيخ، فليس هذا كلّه على مـا تظـن ، القدر يأتي على كل شيء ، ويتعلق بكل شيء ، ويجري على كل شيء ، وبكـل شيء ، وهو سرّ الله المكتـوم ، والعلم الذي يحيط بكلّ شيء ، وكل ما جاز أن يحيط به علـم جاز أن يجرى به قدر ، وإذا جاز هذا جاز أن ينشأ عنه خـبر ، وما هذا التحارج والتضايق ، والشـاعر يهزل ويجد ، ويقرب ويبعد ، ويصـيب ويخطئ ، ولا يؤاخذ به الرجل الـديان ، والعالم ذو البيان ".(٣)

ومثل ذلك ما حكي أنّ القاضي عبد الجبار الهمذاني (٤) ـــ وهو مـن علمـاء

(١) [تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٢ ـ ٥١٢].

(٢) [العباس بن الأحنف ... ـ ١٩٢ هـ ـ ... ـ ٨٠٨ م) بن الأسود الحنفي اليمامي، أبـو الفضل : شاعر غزل رقيق . نشأ ببغداد، وتوفي بها، وقيل بالبصرة . خالف الشعراء في طريقتهم فلم يمدح ولم يهج ، بل كان شعره كله غزلا وتشبيباً. [الأعلام ٣ ـ ٢٥٩].

(٣) [الإمتاع والمؤانسة لـ / أبي حـيان التوحيدي ١ـ ١٢٦].

(٤) [هو قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد بـن عبد الجبار الهمذاني الأسدابادي أبـو الحسين :

المعتزلة – دخل على الصاحب بن عباد وعنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني[1] فلما رأى الأستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء . فقال الأستاذ – على الفور – سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء .[2]

أمَّا النصوص التي يشبه ظاهرها أنْ يكون العبد مكرهاً لا اختيار له ، فمعناها أنه تعالى يشرع أمام البشر السبيلين : سبيلي الخير والشر ، ويرفع إلى أبصارهم النجدين :

نجدي الهدى والضلال ، ولكلّ فريق منهم أن يختار لنفسه ما يوافق استعداده وتجره إليه إرادته وتربيته ومزاجه ووراثته وعوامل المحيط الذي يعيش فيه وهذا الذي يختاره لنفسه منجذباً إليه بالجواذب المذكورة لا يقع إلا منطقياً على ما في علم الله وإرادته ولوح تقديراته ، فلا يمكن أن يختار العبد لنفسه ما لا يكون ثابتاً في العلم الأزلي القديم ، وثبوت ذلك فيه لا ينفي عن العبد صفة الاختيار ولا يسلبه حرية الإرادة ، لأنَّ صفة العلم ليست سوى صفة تنكشف بها المعلومات لله – تعالى – ، فهي لا جبر فيها ولا إكراه ..

ولما كان مشرع السبيلين : سبيلي الخير والشر ، ورافع النجدين : نجدي الهدى والضلالة – هو الله – سبحانه – وتعالى ، قيل في بعض النصوص : إنَّه هو الذي يضل هذا ويهدى ذاك ، وهو الذي قضى وقدّر على زيد بأن يعمل الخير فيكون من أهل السعادة ، وقضى وقدّر على عمرو بأن يعمل الشرّ فيكون من أهل الشقاوة .

وإذا قلنا إنَّ مشيئة العباد تبع لمشيئة الله فليس معناه قهر العبد على الفعل بل مشيئته هي انفعال النفوس عن طريق ما وضعه الله من " قوانين ونواميس " هي من آثار قدرة الله – تعالى – وخلقه وذلك كتأثير الزمان والمكان وتكوين الخلقة وتركيب الجسم والعقل ، ومدى قابلية التفهم والفهم ، وتسلط المجتمع والبيئة والدعاية والتلقين على جميع ذلك

قاضي أصولي كان شيخ المعتزلة في عصره . توفي سنة ٤١٥ هـ = ١٠٢٥ م . [الأعلام ٣ – ٢٧٣].

(١) [هو أبو إسحاق الإسفراييني ، إبراهيم بن محمد الملقب بركن الدين الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي ، تبحر في العلوم . توفي سنة ثماني عشرة وأربعمائة هـ . [وفيات الأعيان لـ/ ابن خلكان ١-٤].

(٢) [شرح العقائد النسفية لـ/ سعد الدين التفتازاني ص ٨٢].

، مما في ذلك كله من إصابة أو خطأ ، فإذا استبت أسباب قبول الهدى من مجموع تلك الآثار ، وتلاءم بعضها مع بعض أو رجح خيرها على شرها عَرَفْنا مشيئة الله لأنَّ تلك آثار مشيئته من مجموع نظام العالم ولأنه – تعالى – عالم بأنها تستتب لفلان ، فعلمُه بتوفرها مع كونها آثار نظامه في الخلق وهو معنى مشيئته ، وإذا تعاكست وتنافر بعضُها مع بعض ولم يرجح خيرها على شرها بل رجح شرها على خيرها بالنسبة للفرد من الناس تعطل وصول الخير إلى نفسه فلم يشأه ، عرفنا أنَّ الله لم يشأ له قبول الخير ، أو بعبارة أخرى أنه شاء له أن يشاء الشر ، ولا مخلص للعبد من هذه الربقة إلا إذا توجهت إليه عناية من الله ولطف فكوّن كائنات إذا دخلت تلك الكائنات فيما هو حافّ بالعبد من الأسباب ولأحوال غيّرتْ أحوالها وقلبت آثارها رأساً على عقب ، فصار العبد إلى صلاحٍ بعد أنْ كان مغموراً بالفساد فتهيأ للعبد حالة جديدة مخالفة لما كان حافّا به ، مثل ما حصل لعمر بن الخطاب من قبول عظيم الهدى وتوغّله فيه في حين كان ملتبساً بسابغ الضلالة والعناد .

فمثل هذا يكون تكرمة من الله للعبد وعناية به ، وإنما تحصل هذه العناية بإرادة من الله خاصة : إمَّا لأنَّ حكمته اقتضت ذلك للخروج بالناس من شرّ إلى خير كما قال رسول الله – ﷺ –: " اللهم أعزَّ الإسلام بأحدِ العمرين "[1]

وإمَّا بإجابة دعوة داع استجيب له فقد أسلم عمرُ بن الخطاب – رضي الله عنه – عقب دعوة النبي – ﷺ – المذكورة..

ألا ترى أنَّ الهداية العظمى التي أُوتيها محمد – ﷺ – كانت أثراً من دعوة إبراهيم – عليه السلام – بقوله (ربَّنا

---

(١) [صحيح ابن حبان ١٥ – ٣٠٥ كتاب إخباره – ﷺ – عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم رضي الله عنهم أجمعين . ذكر وصف إسلام عمر – رضوان الله عليه – رقم : ٦٨٨١ ، والحاكم في مستدركه وصححه ٣ – ٨٩ رقم : ٤٤٨٤ . والترمذي في سننه ٥ – ٦١٧ رقم : ٣٦٨١ كتاب المناقب ، باب في مناقب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر ، وفي مجمع الزوائد ٩ – ٦١ باب في إسلام عمر – رضي الله عنه – قال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه باختصار وقال : آيد الإسلام .. ورجال الكبير رجال مجالد بن سعيد وقد وثق].

وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ [١]) الآية قال النبي ــ ﷺ ــ:" أنا دعوة إبراهيم [٢]"..[٣]

فهذا ما أمكن من بيان هاتين المشيئتين بقدر المستطاع .

فإن أراح ذلك قلب السائل فنعمَّا هو..

وإن لم يجد فيه ما يريح صدره فعليه بالسكوت فهو خيرٌ له كما أمر النبي ــ ﷺ ــ [٤] ولا يشتغل إلا بما أراده الله منه كما عبّر عن ذلك الإمام جعفر الصادق [٥] فقال :" إنَّ الله أراد بنا شيئاً وأراد منّا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منّا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟ ! ".[٦]

وعودة أخرى إلى الآية الكريمة (وَمَا تَشَاءُونَ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) لنذكر بعض التتمات لها :

قوله (تشاءون [٧]) حذف مفعوله ، والتقدير : وما تشاءون شيئاً أو مشيئاً وعموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة ، أي ما تشاءون شيئاً في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال .

---

(١) [سورة البقرة آية رقم : ١٢٩].

(٢) [أخرجه الحاكم في مستدركه وصححه ٢ ــ ٤٥٣ كتاب التفسير ، تفسير سورة الأحزاب ، رقم:٣٥٦٦ ، وفي مجمع الزوائد [٨ ــ ٢٢٣ كتاب ذكر الأنبياء ، باب قدم نبوته ــ ﷺ ــ] :" رواه أحمد بأسانيد والبزار والطبراني ... وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان].

(٣) [ينظر : التحرير والتنوير ١٤ ــ ٤١٥ ، وتفسير جزء تبارك ٩٦].

(٤) [في الحديث أنَّ رسول الله ــ ﷺ ــ خرج على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حبّ الرّمان من الغضب فقال : هذا أمرتم أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأمم قبلكم .[سنن ابن ماجة ١ ــ ٣٣ باب في القدر رقم : ٨٥ . وفي مصباح الزجاجة [لــ/ أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني ١ ــ ١٤ كتاب اتباع السنة ، باب في الإيمان]:" إسناده صحيح ورجاله ثقات "].

(٥) [هو : جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني أبو عبد الله الهاشمي المعروف بالصادق .. مات سنة ثمان وأربعين ومائة .[تقريب ١ ــ ١٣٢].

(٦) [نهاية الإقدام في علم الكلام لــ/ الشهرستاني ١ ــ ٨٨].

(٧) [قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (يَشَاءُونَ) بالياء " للغيبة " ، وقرأ الباقون بالتاء " للخطاب ". [كتاب معاني القراءات لــ/ أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ص ٥٢٠].

وقوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) بيان لكون مشيئته ــ تعالى ــ مبنيّةً على أساس العلم والحكمة ، أي عليم بوسائل إيجاد مشيئتهم الخير ، حكيم بدقائق ذلك مما لا تبلغ إلى معرفة دقائقه بالكُنْه عقولُ الناس ، لأنَّ هناك تصرفات علوية لا يبلغ الناس مبلغ الاطلاع على تفصيلها ولكن حسبهم الاهتداء بآثارها .[١]

ولما ذكر ــ تعالى ــ طلاقة مشيئته النابعة من مكنون علمه وعظيم حكمته بيّن أحكام مشيئته وأثرها فقال :﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[٢]

وترتبط هذه الآية بما قبلها على النحو التالي :

أن تكون بياناً لما تضمنته جملة (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) أي يدخل ــ سبحانه ــ في رحمته من يشاء أنْ يدخله فيها ، هو الذي علم فيه الخير حيث يوفقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة .

(والظالمين) أي لأنفسهم وهم الذين علم فيهم الشر(أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً).

أو يكون قوله (يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ...) الخ مستأنفاً استئنافاً بيانياً ناشئاً عن جملة (وَمَا تَشَاءُونَ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ) إذ يتساءل السامع على أثر مشيئته في حال (من اتخذ إلى ربه سبيلاً) ومن لم يتخذ إليه سبيلاً ، فيجاب بأنه يدخل في رحمته من شاء أن يتخذ إليه سبيلاً ، وأنه أعدّ لمن لم يتخذ إليه سبيلاً عذاباً أليماً وأولئك هم الظالمون .[٣]

وتفسر الرحمة في الآية بمعنى " الجنّة " وعلى ذلك يكون إدخالهم فيها بسبب مشيئة الله وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق .

وتفسر الرحمةُ أيضاً في الآية بمعنى " الإيمان " فالآية على ذلك صريحة في أنَّ الإيمان من الله حسب ما صرح به لفظ " يشاء ".[٤]

واختيار التعبير بلفظ الرحمة دون الجنة أو الإيمان ليشمل كل ما هو رحمة للعبد سواء في دنياه أم في آخرته ..

---

(١) [إرشاد العقل السليم ٩ – ٧٦ ، والتحرير والتنوير ١٤ – ٤١٣].

(٢) [سورة الإنسان آية رقم : ٣١].

(٣) [التحرير والتنوير ١٤– ٤١٦ ، وروح المعاني ١٦ – ٢٨٨].

(٤) [ينظر : مفاتيح الغيب ١٦ – ٩٣].

فإنّ مجرد النجاة من فتن الدنيا وشرها يعدّ رحمة كما أنّ مجرد النجاة من النار في الآخرة يعد رحمة .. إنّها رحمة مطلقة كما هي مشيئة مطلقة .

ونصب " الظالمين " لأن قبله منصوب أي : يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين عذاباً أليماً أي مؤلماً موجعاً .

وإذا كان روح السورة الكريمة هو التكريم والتذكير وأنّ ظلها العام هو الرخاء والنعماء .. فإنّ ما يشفع ختام الآية وكذا السورة الكريمة بهذا التهديد والوعيد : تقديمُ ذكر إدخال من يشاء الله من عباده في رحمته على ذكر إعداد العذاب للظالمين ..

وفي ذلك إشارة إلى سبق رحمة الله على غضبه كما قال رب العزة – جلّ شأنه – " إنّ رحمتي سبقت غضبي "[1]

وبهذا أختم الكلام في تفسير سورة الإنسان

فإن كنت قد وفقت فتلك منّة من الرحمن

وإنْ كانت الأخرى فرجائي من إلى العفوّ والغفران .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد الأنام ورضي الله عن أصحابه ومن تبعهم بإحسان .

فرغ منه بتاريخ ٢٢ / ١٢ / ٢٠٠٧ الموافق ١٣ / من ذي الحجة سنة ١٤٢٨ هـ

(١) [صحيح البخاري كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم رقم : ٦٩٨٦ ، وصحيح مسلم كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله – تعالى – وأنها سبقت غضبه رقم : ٢٧٥١].

• أهم المراجع

أولاً : كتب التفسير وعلوم القرآن.

– إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبي السعود . ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الرابعة ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م .

– أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي / ط / دار الفكر – بيروت ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م .

– البحر المحيط لأبي حيان . ط دار الكتب العلمية / بيروت – الأولى ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

– التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور . ط / دار سحنون للنشر والتوزيع (تونس) .

– تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)– ط – الحلبي .

– تفسير جزء تبارك للأستاذ الشيخ/ عبد القادر المغربي / مطابع الشعب .

– التفسير التحليلي لسورة النساء الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة . ط – مطبعة الفجر الجديد – الأولى ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .

– تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم د / زغلول النجار . مكتبة الشروق الدولية – ط أولى ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م .

– جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري ط – دار الحديث ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م ، والنسخة التي حققها الشيخ محمود شاكر ، ط / دار المعارف بمصر

– الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) طبعة خاصة بترخيص من دار الشعب دار الريان للتراث .

– حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي . دار صادر – بيروت .

– الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي . ط – دار الفكر – بيروت – الثانية ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي . ط– دار الفكر – بيروت ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

– زاد المسير في علوم التفسير ، لـ/ الإمام أبي الفرج الجوزي .– ط – دار الفكر – بيروت .

ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير للإمام الشوكاني . دار الفكر - بيروت .
ـ في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب . ط - دار الشروق - السابعة والعشرون ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م.
ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري . ط - دار الفكر .، ط / مكتبة العبيكان / الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض.
ـ لطائف الإشارات للإمام القشيري .ط الهيئة ٢٠٠٠م
ـ المحرر الوجيز للإمام ابن عطية . تحقيق / عبد السلام عبد الشافي محمد - ط - دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
ـ مفاتيح الغيب للإمام الرازي . ط - دار الغد - الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .
ـ مجمع البيان في تفسير القرآن لـ/ الطبرسي . - ط - بيروت .
ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي . ط - دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
ـ النكت والعيون للماوردي . دار الكتب العلمية بيروت .
ـ الإتقان في علوم القرآن للحافظ السيوطي مكتبة دار التراث ٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة .
ـ الإكسير في علم التفسير للإمام الطوفي تحقيق د / عبد القادر حسين / مكتبة الآداب .
ـ البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي مكتبة التراث ، بدون تاريخ.
ـ بحثان حول سور القرآن " اسم السورة يمثل روحها العام ، ترتيب نزول السور القرآنية " لفضيلة الأستاذ الدكتور / إبراهيم عبد الرحمن خليفة . ط / دار البصائر - الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .
ـ الحجة في القراءات السبع لابن خالويه . دار الكتب العلمية .
ـ حجة القراءات لابن زنجلة . مؤسسة الرسالة - بيروت / الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م .
ـ كتاب معاني القراءات لـ/ أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري . ط - دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .
ـ كتاب السبعة في القراءات (لابن مجاهد) . ط - دار المعارف - الثانية - بتحقيق د/ شوقي ضيف .
ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، لـ/ الراغب الأصفهاني . دار الفكر .
ـ معاني القرآن للفراء . بتحقيق - أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار، والدكتور عبد الفتاح شلبي - نشر عالم الكتب - بيروت - الثالثة ١٩٨٣م .
ـ المدخل لدراسة القرآن الكريم د/ محمد محمد أبو شهبة . ط - مكتبة السنة/ الثانية ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م.
ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس . مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة .
ـ النشر في القراءات العشر لـ/ ابن الجزري . أشرف على تصحيحه ومراجعته : علي محمد الضباع / شيخ عموم المقارئ : بالديار المصرية . بدون

ثانياً كتب الحديث الشريف وعلومه:

ـ دلائل النبوة للبيهقي . ط - دار الريان للتراث - الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م . بتحقيق / عبد المعطى قلعجي.
ـ الزهد لـ/ عبد الله بن المبارك . ط - دار الكتب العلمية - بيروت ، بتحقيق / حبيب الرحمن الأعظمي
ـ سنن الترمذي . ط بيروت .
ـ سنن أبي داود . ط بيروت .
ـ سنن ابن ماجة . ط - دار الفكر بيروت.
ـ صحيح البخاري . ط - دار ابن كثير - بيروت - الثالثة ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .
ـ صحيح مسلم . دار الغد - الأولى ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م .
ـ صحيح ابن حبان . ط - بيروت الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م بتحقيق / شعيب الأرنؤوط .
ـ كنز العمال لـ علاء الدين علي المتقي البرهان فوري . ط / بيروت .- الخامسة - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
ـ مسند أبي يعلى . ط - دار المأمون للتراث - دمشق - الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل . ط ـ مؤسسة قرطبة بالهرم ـ مصر ، و ـ ط ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت الرابعة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

ـ مستدرك الحاكم . وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي . بيروت ـ بدون تاريخ

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي . ـ ط ـ دار الكتاب العربي . بيروت ١٤٠٧ هـ

ـ مصباح الزجاجة لـ/ أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكناني . ط / دار العربية ـ بيروت ـ ط الثانية ١٤٠٣ هـ تحقيق : محمد المنتقى الكشناوي .

ـ مقدمة ابن الصلاح . مكتبة المتنبي .

ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول لـ/ أبي عبد الله الحكيم الترمذي . ـ ط ـ دار الجيل ـ بيروت ـ الأولى ١٩٩٢ م .

ـ النهاية في غريب الأثر لـ/ ابن الأثير المحدث . ـ ط ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي .

كتب التراجم :

ـ الأعلام لـ/ خير الدين الزركلي . ط ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الثامنة ١٩٨٩ م .

ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، لـ / أبي الحجاج المزي . ط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الأولى ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م . بتحقيق / بشار عواد معروف .

ـ تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني ط ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

ـ تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني ط ـ دار المعرفة ـ بيروت .

ـ تذكرة الحفاظ لـ/ محمد بن طاهر بن القيسراني . ط ـ دار الصميعي ـ الرياض ـ الأولى ١٤١٥ هـ .

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني . ـ ط ـ القاهرة١٩٦٦ م

ـ طبقات المفسرين للأدنروي . مكتبة العلوم والحكم " المدينة المنورة ـ الأولى ١٩٩٧ م .

ـ المجروحين لـ/ أبي حاتم البستي / دار الوعي / حلب .

ـ المغني في الضعفاء للإمام الذهبي . تحقيق : نور الدين عتر . بدون

ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، لـ/ الإمام الذهبي . ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الأولى ١٩٩٥ م بتحقيق / الشيخ علي محمد معوض ، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود .

ـ معجم المفسرين لـ/ عادل نويهض . ط ـ مؤسسة نويهض الثقافية ـ الثالثة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م .

ـ وفيات الأعيان لـ/ ابن خلكان . دار صادر ـ بيروت .

رابعاً : كتب العقيدة .

ـ شرح العقائد النسفية لـ/ سعد الدين التفتازاني . ومعه كتاب العقائد النسفية لـ/ نجم الدين النسفي السمرقندي ـ ط ـ المكتبة الأزهرية للتراث ـ الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

ـ الفرق بين الفرق لـ/ عبد القاهر البغدادي . ـ ط ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت / الثانية ١٩٧٧ م .

ـ الملل والنحل للشهرستاني . ـ ط ـ بيروت الثانية ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢م صححه وعلق عليه الأستاذ / أحمد فهمي محمد .

خامساً : كتب اللغة .

ـ شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان للإمام السيوطي . ط ـ مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م .

ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز للعلوي . ـ ط ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

ـ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي . نشر مؤسسة الرسالة ـ الثانية ١٤٠٧ هـ

ـ لسان العرب لابن منظور . ـ ط ـ دار صاد ـ بيروت ـ الثالثة ١٤١٤هـ القاهرة

ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، لـ/ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي توفي سنة ٧٧٠ هـ ، ـ ط ـ الحلبي

لـ/ أحمد بن محمد بن علي المقري.

فهرس عام

الموضوع رقم الصفحة

ـ المقدمة ٢٤٠١

ـ تمهيد..... ٢٤٠٢

ـ اسم السورة الكريمة وسبب تسميتها بهذا الاسم ٢٤٠٢

ـ مكان نزولها ٢٤٠٧

ـ بيان عدد آيات هذه السورة الكريمة ٢٤١٢

ـ بيان فضل السورة الكريمة. ٢٤١٢

ـ مناسبة هذه السورة لما قبلها ٢٤١٤

ـ استعراض السورة بوجه عام.....٢٤٢٠

ـ التفسير التحليلي لسورة الإنسان ٢٤٢١

ـ تفسير قوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ...) الآية ٢٤٢١

ـ تفسير قوله تعالى (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ..) الآية ٢٤٢٤

ـ " " " (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ..) الآية..... ٢٤٢٨

ـ " " " (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ ..) الآية.... ٢٤٣٠

ـ " " " (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ..) الآية..... ٢٤٣٢

ـ " " " (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ...) الآية..... ٢٤٣٤

ـ " " " (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ....) الآية..... ٢٤٣٥

ـ " " " (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ..إلى قوله :(إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا..) ٢٤٣٧

ـ " " " (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ....) الآية... ٢٤٤٢

ـ " " " (وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ..) الآية..... ٢٤٤٣

ـ " " " (مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ..) الآية..... ٢٤٤٣

ـ " " " (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ..) الآية ٢٤٤٣

ـ " " " (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ ..ـ إلى قوله ـ..(قَدَّرُوهَا تقديرا) ٢٤٤٦

ـ " " " (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً..ـ إلى قوله ـ.. (سَلْسَبِيلاً) ٢٤٤٧

ـ " " " (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ ...) الآية .. ٢٤٤٩

ـ تفسير قوله تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ ...) الآية ٢٤٥٠

ـ " " " (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ ...) الآية..... ٢٤٥٢

ـ " " " (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ...) الآية..... ٢٤٥٥

ـ مناسبة قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا...) الآية لما قبله..... ٢٤٥٥

ـ تفسير قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا...) الآية..... ٢٤٥٥

ـ " " " (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ...) الآية..... ٢٤٥٥

ـ " " " (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ..ـ إلى قوله ـ.. وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً)..... ٢٤٥٩

ـ " " " (إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ...) الآية.... ٢٤٦١

ـ " " " (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ...) الآية..... ٢٤٦٢

ـ " " " (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ...) الآية..... ٢٤٦٤

ـ " " " (وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...) الآية..... ٢٤٦٦

ـ " " " (يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ...) الآية..... ٢٤٦٨

ـ المراجع ٢٤٧٩

ـ الفهرس..... ٢٤٨١